الفصل الرابع

تجليات الشكل والمضمون

جمالية التركيب الداخلي للصيغة

قدمت اللغة العربية مفردات وافرة من خلال الاشتقاقات الصرفية ، وكانت هذه الميزة قد أغنتها عن المزيد من المفردات ، وهكذا تتعين الدلالة الصرفية في لغتنا العربية من داخل التشكيل الصوتي غالباً: كتب ، استكتب ، مكاتبة ، مكاتب ، مكتوب ، وذلك بخلاف اللغات الأخرى التي تجنح إلى السوابق واللواحق في الوصول إلى دلالات جديدة.

ونعني بالصيغة في هذه الفقرة ورود الكلمة على حال معينة من بين الصيغ التي نجدها في تصريف الكلمة ، من إفراد وتثنية وجمع ومضيّ ومضارعة وتضعيف العين ، والفاعلية والمفعولية ، وغير هذا مما يبسط مع الشواهد ، إذن سنبحث في أثر الصيغ لبعض المفردات القرآنية من غير الانكماش عنه الدقة النحوية أو الصرفية ، إذ تتجاوزهما إلى الدلالة الجمالية في الاختيار والمغايرة.

وسنقبس بعض الشيء من لمحات الدارسين القدامى ، ونتجنب طابع التفسير والتعليل مما يقلّل من جانب الجمال الفني ، وقد انطلق كثير منهم من معيار لغوي واضح في تملّي جمال الصيغة ومناسبتها للنص ، وربطوا بين اللفظ وبين المدلول من خلال الصيغة الصرفية.

وكانت جهود العلماء منثورة في بطون كتب التفسير وكتب الإعجاز ،

وكتب الإعراب[1] ، وسنأتي على ذكر بعض جهودهم مع بسط الشواهد مثل مكي بن أبي طالب (ـ ٤٣٧ هـ) والفراء الزمخشري وابن قتيبة والأنباري (ـ ٥٧٧ هـ) صاحب البيان في غريب إعراب القرآن.

وكذلك اهتم ابن جني بقضية محاكاة الأصوات لظواهر الطبيعة ، وقد أثار هذه الفكرة في مصنفه النفيس «الخصائص» ، وأشار إلى ارتباط صيغةِ فعلان ، بحال الاضطراب والحركة ، كيما اهتم بمحاكاة الحروف والحركات.

يقول: «قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجُنْدُب استطالة ومدّاً فقالوا: صرَّ ، وتوهّموا في صوت الباز تقطيعاً ، فقالوا: صرصر ، وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: إنها تُوالي حركات الأفعال ـ الأحداث ـ»[2].

ويسرد أوزاناً أخرى توافق ما ذكره الخليل وسيبويه ، ويبدو أن هذا التعليل لم يتأَتَّ لدارسي الإعجاز فلم يصرِّحوا بهذه المحاكاة إلا في القليل النادر ، فلم يجدوا منه شيئاً في القرآن الكريم.

ولقد استفاد الزمخشري من هذا في تفسيره الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] ، وقال عن الفاصلة: «وفي بناء «الحيوان» زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي لما في «فَعَلان» من الحركة والاضطراب والحياة حركة ، كما أن السكون موت ، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة»[3].

---

(١) انظر مثلاً معاني القرآن للفرّاء: ٢/ ٣٣٧ وإعراب مشكل القرآن ، مكي بن أبي طالب: ١/ ٢٧٠ حول المثنى والجمع.

(٢) الخصائص: ٢/ ١٥٢.

(٣) الكشاف: ٢/ ١٨٣ وانظر مفاتيح الغيب: ٢٥/ ٩٠ ، ونظم الدرر ، للبقاعي: ١٤/ ٤٧٥

ونجد الزمخشري يطبّق القاعدة التي أوردها ابن جني ، بيد أن ما ذكر في الخصائص يتصل بالمحسوس ، وهذه المفردة تدل على نشاط الجانب الروحي ، ويبدو لنا أن غرابتها في الاستعمال تشير إلى خصوصية الحياة الأخروية واختلافها عن الحياة الدنيا ، وعمق المعنى واللذائذ غير المتكررة.

واهتمام ابن جني بالدلالة الصرفية أكبر من اهتمامه بمحاكاة الأصوات لظواهر الطبيعة ، والسبب هو سهولة إثبات دلائل التغيرات الصرفية ، ووفرة الشواهد التي تثبت هذه المسألة ، وإن كانا أي المحاكاة والدلالة الصرفية قد ذُكرا معاً في باب «المصاقبة».

يقول ابن جني: «ومن ذلك جعلوا تكرير العَيْن في المثال دليلاً على تكرير الفعل ، فقالوا: كسَّر وقطع وفتَّح وغلَّق ، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني ، فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل ، والعين أقوى من الفاء واللام ، وذلك لأنها واسطة لهما ، ومكنوفة بهما ، فصارا كأنهما سياج لها ، ومبذولان للعوارض دونها»[1].

ولم يبتعد الدارسون كثيراً عن تقنين ابن جني ، وإن كان هذا واقعاً تحت عناوين مختلفة مثل: «الزيادة في البناء» و«ملاءمة اللفظ والمعنى».

وقد كثرت الشواهد في كتب الإعجاز حول تضعيف العين مثل: غافر وغفّار ، وكاذب وكذّاب ، وذبَح وذبَّح ، وقتَل وقتَّل وغيرها مما يفيد الكثرة.

ولا يعنينا هنا اختلاف الاسم ، إنما يعنينا التماس الدارس للمخزون النفسي والأثر الوجداني ، وموافقة المعنى ، ودقة التصوير فيما تكتنفه الصيغة ، وإن كنا نعني بها التذكير والتأنيث ، والإفراد والتثنية ، وغير

---

(١) الخصائص: ٢/ ٢٨٥.

هذا ، فغايتنا تنحصر في كل جمال يعتمد التركيب الداخلي وسيلة له .

وسوف نتجاوز المكرَّر من الملحوظات الجمالية ، ونطرح جانباً ما لم يتعدّ التفسير اللغوي ، الذي لا يمسّ الوجدان ، وتطول وقفتنا مع الزمخشري ، لأنه خير من كان يتأمل دقائق اللغة القرآنية بتذوق ، لا بجفاف مدرسيّ.

ولا نبخس جهد بعض المعاصرين الذين استطاعوا إضافة الجديد على رؤية القدامى ، مثل ما ورد في كتاب «صفاء الكلمة» للدكتور عبد الفتاح لاشين طبع عام ١٩٨٣ وكذلك الجهد المتميز للدكتور علي النجدي ناصف بعنوان «مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة» طبع عام ١٩٨١ .

ولقد اطلعت على كتاب «صيغة أفعل ودلالتها في القرآن الكريم ، للدكتور توفيق أسعد ، وطبع عام ١٩٩٠ ، وفي عنوان جزئي تقرأ: دراسات أدبية ، والمراجع تبين أنه درس في النحو ، إذ رتب المفردات بحسب الترتيب الهجائي (أت ي) أتى ، أذن ، أذي ، وهكذا ، ثم يصرّف الفعل ، فيذكر الماضي والمضارع والأسماء ، من غير ذكر الدلالة البلاغية التي هي أعلق بالدراسات الأدبية كما يذكر العنوان[١] .

وثمة كتاب يغلب عليه الطابع اللغوي والصرفي للدكتور زين كامل الخويسكي ، وهو كتاب إحصائي ، جاء في أربعة فصول ، درس المجالات الدلالية عن المعاصرين في الفصل الأول ، ومجالات الفعل «اتبع» في الفصل الثاني ، مع ذكر عدد مرات ورود الفعل إلى جانب التحليل المرفق بجدول إحصائي لمعنى الخير وفي الفصل الثالث نجد المجالات الدلالية للفعل «اتبع» نحو الشر ، وفي الفصل الرابع نجد بحثاً

---

(١) راجع: صيغة أفعل ودلالتها في القرآن الكريم. د. توفيق أسعد ، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٠ .

لصيغة «افتعل» وتصريف الأزمنة ، من غير ذكر دلالات بلاغية ، فالبحث أقرب إلى علم الدلالة Semartics [1].

أما أحدث دراسة في هذا المضمار فهي كتاب «سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن» ، وهو في الأصل رسالة دكتوراة بالأردن للدكتور عودة الله منيع القيسي ، ويعدّ جهداً مباركاً ، وفّق فيه الباحث إلى ذكر دلالات نافعة ، مضيفاً الكثير على آراء القدامى ، ومرجّحاً الأقوى منها.

وقد خصّص الدكتور عودة الله الفصل الألول لتنوع صيغ الأفعال المشتقة من أصل لغوي واحد مثل تأخر واستأخر ، ونجزي ونجازي ، وخصّص الفصل الثاني لتنوع صيغ المشتقات ذات الأصل اللغوي الواحد ، مثل بري وبراء ، ومبصرون ومستبصرون ، وخصص الفصل الثالث ، والأخير لتنوع صيغ المصادر الراجعة إلى أصل لغوي واحد ، مثل: الأمن والأمنة وحب ومحبة ، وقد استعان ببراعة ببعض الكتب الأدبية المعاصرة لدى تملّي الظاهرة الجمالية.

وسنقف عند بعض الظواهر التي تجلّت فيها أهمية الصيغة ، فهناك الإفراد والجمع ، والفعل ، والاسم ، والمشتقات والمصادر.

أ ـ الإفراد والجمع:

سنطلع على بعض الآيات التي آثر فيها البيان الإلهي صيغة الإفراد مكان صيغة الجمع ، أو صيغة الإفراد مكان التثنية ، من هذا إفراد السمع والبصر في القرآن الكريم مقترنتين ، وقد لمس الجاحظ قديماً ملمحاً موسيقياً ، وهو استقباح الوقوف على العين الحلقي بعد طول المد ، كما من مثل قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ

---

(١) راجع كتاب في المجالات الدلالية في القرآن الكريم مواضع متفرقة منه.

تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] ، وهذا ليس مطرداً خلافاً لما رأى الدكتور لاشين ، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦] فأفرد البصر.

ويقول الدكتور عبد الفتاح لاشين معبراً عن سبب من الواقع المعيش وطبيعة الخلقة: «إن استقبال الأذن للمسموع لا خيار للإنسان فيه ، فلا يمكن أن يمنع أذنه أن تسمع شيئاً وصل إليها أو وقع عليها ، أما العين فلها الخيار في ذلك ، فلها أن ترى المنظر الذي أمامها فتحملق فيه ، ولها أن تغمض فلا ترى مما أمامها شيئاً. . . إذاً فالسمع واحد ، ولكن الأبصار قد تتعدد مرائيها ، هذا يبصر ذلك ، وذلك لا يبصر ، لأن هناك تحكماً في العضو نفسه ، بحيث يرى أو لا يرى ، وأما السمع فلا خيار لأحد فيه ، لذلك جاء السمع مفرداً ، والأبصار مجموعة دائماً»(١).

أما صيغة الإفراد اللافتة للنظر ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧] ، وكذلك وردت في قوله عز وجل: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١] ، إذ المتبادر إلى ذهن المتلقي أن يقول: أطفال.

وقد استند الأخفش الأوسط (ـ٢١٥ هـ) إلى الاختصار والحذف لتأويل الإفراد ، منطلقاً من طبيعة نحوية ، إذ قال حول الآية الأولى: «إنه استغنى بالواحد عن الجميع ، وذلك يعني أن سر الحذف هنا غير مجرد الاختصار ، وهو إقامة الواحد مقام الاثنين ، كما في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ [ق: ١٧](٢) أي قعيدان.

يقول الدكتور علي ناصف: «وإذا نظرنا في هذه الآيات الثلاث نتبيّن

---

(١) صفاء الكلمة ، د. عبد الفتاح لاشين ، ص/ ١٣٧.

(٢) معاني القرآن: ٢/ ٤٨٣.

أن الآيتين: الأولى والثانية، لا تتحدثان عن الأطفال في عموم حالهم، وأيّاما كانت مرحلة طفولتهم، ولكنهما تتحدثان عنهم أوَّلَ عهدهم بالحياة، حين يخرجون إليها، ويتنسّمون هواءها، والأطفال في هذه الحال جمع عدد، ولكنهم فرد واحد حقيقة ومعنى، ومهما تعددت أشخاصهم، وتباينت صورهم وألوانهم، وتخالف آباؤهم وأمهاتهم، لأنهم يتحدون في سر الوجود وحكمة الخلق، أليسوا جميعاً على الفطرة «كل مولود يولد على الفطرة»[1] فالطفل بلفظة الإفراد أحقّ بهذا المقام وأصلح له، لأنه يوحي بإفراده ما لا يوحي بجمعه، وينبّه إلى ما لا ينبّه الجمع إليه»[2].

ثم يقول حول آية النور: «أما الآية الثالثة، فتتحدث عنه مع الذين يباح للنساء أن يُبدين زينتهن لهم، ونلاحظ أنهم ذكروا بلفظ الجمع، أما الأطفال فقد ذكروا وحدهم بلفظ الإفراد... فكيف يصحّ في شرعة البيان والإعجاز أن يذكروا مع من ذكروا معهم بلفظ الجمع مثلهم، وهم ليسوا منهم، ولا على شاكلتهم في الحكم الذي جمع بينهم»[3].

كما يبدو لنا أن الإفراد يحدث مفاجأة لغوية مع صيغ الجمع المتعددة للرجال: آباء إخوة، أعمام، أخوال... وفي هذه المفاجأة إشارة إلى البراءة وتذكير كبير بها، ودعوة إلى براءة الأطفال وخصوصيتها، وكأنها خطوط نافرة في لوحة.

ورد في القرآن الكريم التعبير بالجمع مكان التثنية، في قوله عز وجل عن السماء ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصّلت: ١١] بدلاً من طائعتين بالتثنية، والرصيد الديني هو الذي يفسر لنا هذه الصيغة، يقول الدكتور علي

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ٥/ ٣٣.
(٢) مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة، د. علي النجدي ناصف، ص/ ١١٠.
(٣) مع القرآن الكريم ص/ ١١٠ ـ ١١١.

ناصف: «ويمكن السر ـ والله أعلم ـ في هذا التحالف البادي بين الأمر وجوابه، ولو جاء على وجه الوفاق والمطابقة لكانت الطاعة حينئذ حاصلة من السماء والأرض لا غير، فإليهما وحدهما كان الأمر بالطاعة، لكن تحالف الأمر وجوابه على هذا النحو يشير إشارة لطيفة إلى أن الطاعة لن تكون منهما وحدهما، بل منهما ومن كل من فيهما: السماء بالملائكة في مَلَئها وبالنجوم والكواكب في عالمها، والأرض بمن فيها من الإنس والجن، وبكل ما تحمل على ظهرها من شيء»(١).

ولكن لا نعرف ماهية السماء والأرض في بدء الخليقة، فهل كانتا تحويان هذه المخلوقات، خصوصاً أن قضى بعد ذلك سموات أخرى متابعاً الخلق، فهل نظن بوجود الإنسان قبل خلق سائر السموات؟

ويمكن أن تدل الكلمة في حال إفراد على الجمع، لكونها اسم جنس، كما في الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، فنرى أن الإفراد لا يقتصر على الجنس ليفيد كل شجرة، بل لينتبه أولاً المشاهد إلى شجرة واحدة، ليفهم تقنية التحول إلى أقلام ومن ثم يتسع المدى المرئي شيئاً فشيئاً مع التقصّي إذ يتصور كل الأشجار.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم قيل «من شجرة» على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟ قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصّيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا بُريت أقلاماً»(٢).

ويفرّق الزمخشري بين الحجرة والحجرات، وبين ما جاء في القرآن الكريم من خلال منظور نفسي تهذيبي، كما في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤].

---

(١) مع القرآن الكريم، ص/ ١٣١.
(٢) الكشاف: ٣/ ٣٩٦.

يقول: «ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له ، فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك ، وأنهم قد أتوا حجرة ، فنادوه من ورائها ، وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت: إجلالاً لرسول الله ﷺ ولمكان حرمته».

ثم يقول: «فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بيّنات إكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله ، منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين بالسفه والجهل لما أقدموا عليه ، ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، ومنها المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبيّن به ما استنكر عليهم»[1].

وينظر في صيغة الجمع الدال على قلة كما في الآية: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] ، ويقول: «وإنما قيل أعين» دون عيون ، لأنه أراد أعين المتقين ، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم ، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣][2].

وقد وردت «خاشعة» بالإفراد في قوله عز وجل: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣] ، ووردت بصيغة الجمع كما في الآية الكريمة: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] ، فاختلف التعبير لاحتواء الفكرة.

ويرجع هذا الاختلاف في رأي الدكتور عودة الله منيع القيسي إلى علتين: «الأولى أن صيغة الجمع ورد بعدها «يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر» ، فقد شبه عدد الناس يوم القيامة بعدد الجراد كثرة ، فكانت

---

(١) الكشاف: ٣/ ٢٣٣.
(٢) الكشاف: ٣/ ٣٠٢.

كثرة الجراد تتطلب كثرة في الصفة الدالة على حال الناس يوم القيامة عن طريق الجمع ، أما الصيغة المفردة فلم يرد معها ما يوحي بالتكثير.

والثانية: أن السورة التي وردت فيها صيغة الجمع ، بنيت على الجمع من مطلعها ، فالحق تعالى يقول: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ١ ـ ٢] ، فقد جاء الضمير في قوله «وإن يروا» دالاً على الجمع ، دون أن يسبقه اسم مظهر للجمع ، مما يوحي بأن الجمع أصل في هذه السورة ، يقوم عليه بناؤها ، فناسَبَ بناءَ السورة على الجمع بناءُ صفة الأبصار «خشعاً» على الجمع»[1].

ب ـ صيغ الأفعال:

ونبدأ بالفعل نزَّل الذي يفيد توالي النزول شيئاً بعد شيء ، كما في قوله عز وجل: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣] ، هذه الصيغة تفيد التواصل بالتدريج عند الزمخشري ، فثمة تسهيل لبيان حجة الإعجاز.

يقول: «فإن قلتَ: لم قيل «مما نزّلنا» على لفظ التنزيل إلا الإنزال؟ قلتُ: لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون عند الناس لم ينزل هكذا نجوماً.. فقيل: إن ارتبتُم في هذا الذي وقع إنزالُه هكذا على مَهْل وتدريج ، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نُوبه ، وهَلمّ نَجماً واحداً من نجومه ، سورة من أصغر السور ، أو آيات شتّى مفتريات ، وهذه غاية التبكيت ، ومنتهى إزاحة العِلَل»[2].

---

(١) سر الإعجاز ، ص/ ١٥٤.

(٢) الكشاف: ١/ ٢٣٨ ، وانظر: ملاك التأويل ، ابن الزبير: ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٩ ولم يتفرد ابن الزبير بالتفريق بين نزَّل وأنزل كما ذكر الدكتور عودة الله منيع القيسي في كتابه سر الإعجاز ، ص/ ١٢١.

ويرى ابن الزبير الغرناطي (ـ٧٠٨ هـ) وهو ممن عني بالمتشابه اللفظي في القرآن الكريم ، أن التضعيف (نزَّل) لم يرد لذكر التوراة إلا مرة واحدة كما في الآية الكريمة: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] ، وذلك لأن المراد أحكام التوراة الباقية ، فلمّا حرّم على بني إسرائيل ما حرَّم كما في قوله عز وجل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] وعلموا بهذا التحريم أنكروا أن يكون قاصراً عليهم ، وادّعوا أنه يشمل الأمم السابقة ، فبيَّن الحق أن التحريم وقع عليهم وأن حكمه ثابت مستقر»[١] .

ويستخلص الزمخشري مفهوماً دينياً من صيغ الفعل في الآية الكريمة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

يقول: «فإن قلت: لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب؟ قلتُ: في الاكتساب اعتمال ، فلمّا كان الشر مما تشتهيه النفس ، وهي منجذبة إليه وأمّارة به ، كانت في تحصيله أعملَ وأجَدَّ ، فجُعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولمّا لم تكن كذلك في باب الخير وُصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال»[٢] .

ولكن إذا كانت صيغة «اكتسب» تدل على الاعتمال الذي يناسب فكرة الشر ، فإننا لا نجد هذا مطرّداً في سياق القرآن الكريم ، فقد ذُكر الكسب في مضمار الشر ، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١١] .

فنحن نوافقه في أن الخير طَبْعٌ على الفطرة ، والشر تكلُّف واعتمال

---

(١) راجع ملاك التأويل لابن الزبير: ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٩ . وسر الإعجاز، د. عودة الله منيع القيسي ، ص/ ١٢١ ـ ١٢٢ .

(٢) الكشاف: ١/ ٤٠٨ .

وتدخُّل بشري ، كما تؤكد العدالة الإلهية ، ونلتمس العذر له في هذا المقام ، لأنه يريد تبيين الموازنة بين جانبي الخير والشر في آية واحدة ، فنبَّه على عدم التكرار إذ جاءت التاء عامل تنبيه وتفريق بين سلوكَيْن.

وهذا ما أوضحه بعده ابن أبي الإصبع قائلاً: «وإنما منع ذلك ما يحصُلُ للنظم من العيب وإغماض المعنى الذي قُصد ، أما العيب فاستثقال «كسب» بغير زيادة في نظمٍ قربت فيه الثانية من الأولى فسمُجَ ، وأما الإغماض فلأن المرادَ الإشارةُ إلى أن الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى الناسَ فطرةُ الخير ، فالإنسان بتلك الفطرة السابغة في أصل الخلق لا يحسُنُ أن يُنْسَبَ إليه إلا كسب الحسنات ، وما يعمله من السيئات يعمله لمخالفته الفطرة ، فكأنه تكلَّف من ذلك ما ليس في جِبِلَّته ، فوجبت زيادة التاء التي للافتعال»[١].

ويمكن أن نجمع طائفة كبيرة من الأفعال في القرآن الكريم دلَّت كثرة حروفها على زيادة الحدث. مثل ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢] ، وكذلك قوله عز وجل في وصف أهل النار ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [فاطر: ٣٧] ، إذ عدل البيان الإلهي عن الصبر إلى الاصطبار ، وعن الصراخ إلى الاصطراخ.

وقد أشار الإمام الزركشي إلى الحرف الذي زيد في الكلمتين ، إنه حرف الطاء أحد حروف الإطباق ، وهو حرف شديد ، بل يعد أقوى الحروف فقد أكد أن: «واصطبر» أبلغ من الأمر بالصبر ، وأن «يصطرخون» أبلغ من «يتصارخون»[٢].

وعندما نقرأ الآيتين نجد أن حرف الطاء يساعد على تجسيم الجهد

---

(١) بديع القرآن ، ص/ ٣٠٥ ، وانظر الطراز: ٢/ ١٦٤.
(٢) البرهان: ٣/ ٣٨.

الذي يكون في إقامة الصلاة ، وحجم تحمّل المؤمن للشدة في تنفيذ الأمر الإلهي ، كما نفذه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام. فثمة قوة مجسمة بالطاء ، ترسم العالم النفسي وتجعله عياناً.

وكذلك نجد الأمر ذاته في كلمة «يصطرخون» فالطاء يضيف معنى الشدة في استغاثة الكافرين ، إنه صراخ قوي نابع من نفوس محطمة يائسة ، وهو صراخ خشن غير طبيعي تومىء إليه قوة الطاء ، وهو غريب الطبع كما أومأ إلى هذا اقتران الطاء بالصراخ ، وقلة استعمال الكلمة.

ويمكن أن نلتمس مظاهر القوة الحسية في شواهد كثيرة ، مثل قوله عز وجل: ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [الأنفال: ٢٦] ، إنه تعالى يظهر نعمته على قريش ، نعمة الأمن ، فيؤثر فعل «يتخطف» على «يخطف» ، لما فيه من زيادة التاء والتشديد التي ترسخ معنى العنف ، وهذا بالإضافة إلى اختيار فعل الخطف الذي يفيد قوة المعتدي وبطشه ، ويفيد بالمقابل سهولة خطف المعتدَىٰ عليه ، وذلك لتظهر جليةً رحمة الله وعنايتهم بهم.

وقد فصل القرآن الكريم الكلام على إسباغ النعمة على بني إسرائيل وجحودهم ، فقد أنقذهم من فظائع فرعون في النفوس والأعراض ، كما في قوله عز وجل: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٩] ، وكذلك: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ [القصص: ٤].

ويلفت الدكتور أحمد بدوي نظرنا إلى فعل «يذبّحون» قائلاً: «تجده قد اختار ذبّح مصوّراً به ما حدث ، وضعّفت عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل في أبناء إسرائيل يومئذ ، ولا تجد ذلك مستفاداً إذا وضعنا مكانها كلمة يقتلون»[1].

ولم تُذكر قصة بني إسرائيل في القرآن الكريم إلا وقد استخدمت صيغ

---

(١) من بلاغة القرآن ، ص/ ٥٨.

دالة على الكثرة في الحدث في هذا الفعل وغيره ، فقد استمر فيها إيثار «يذبّح» على يذبح ، و«يُقتّل» على يقتُل ، ويُصلّب على يصلُب ، و«يُقطّع» على يقطع ، وذلك في كل من سرد الخبر أو على لسان فرعون ، ليكون الحوار معبراً عن شخصيته المتجبِّرة.

ولدى العودة إلى بني إسرائيل في القرآن الكريم نقرأ قوله عز وجل على لسان فرعون مهدّداً السحرة: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

فالغضب يتجلّى في الفعل الذي شدِّدتْ عينه «أقطعّن» و«أصلبنكم» كما تضيف نون التوكيد معنى الشدة ، وهكذا العنف الشديد يناسب اختيار «في جذوع» وليس على جذوع ، فكأنه لشدة حَنَقه يريد أن يغرسهم داخل الجذوع ، فكل شيء يلين ويسيل أمام غطرسته الجذعُ والجسدُ.

وثمة نبرة قوية تعضد معنى العنف ، تتجلّى في الوقوف على الميم الساكنة ثلاث مرات ، وكذلك في الوقوف على الباء الساكنة في الكلمة الأخيرة «أبقى» ، وكل هذا يساعد على تجسيم الغضب وشدة الوعيد بالإضافة إلى صيغ الأفعال.

ونجد الزيادة في الحدث متجليةً في زيادة السين والتاء كما في الآية الكريمة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] إذ «تستوقفنا كلمةِ «استوقد ناراً» ، فنتبيّن فيها حال رجل قد أحاطت به حُلكة الظلام ، فهو يطلب جاهداً ناراً تضيء له مسالك السبيل ، والسين والتاء يدلان على هذا البحث القوي والطلب الجاد»[1].

والمعروف أن السين والتاء في «استفعل» تفيدان الطلب ، كما تفيدان أشياء أخرى كالصيرورة والتحول ، وهذه الصيغة تفيد الثبات والقوة ،

(١) من بلاغة القرآن ، د. أحمد بدوي ، ص/ ٣٢.

كما في قوله عز وجل: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣] ، وذلك بعد أن شَجَب عناد المشركين وسفّههم في قوله: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٢١].

وكذلك ما جاء على لسان الكفار الذين أجهدوا فكرهم ، ولم يتوصّلوا إلى صدق رسولهم ، كما الآية الكريمة: ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢] ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويرجّح الدكتور عودة الله التفريق بين صيغتي أمسك واستمسك متوصلاً إلى الاجتهاد الشخصي في استمسك وأنها تقتصر على الإمساك بالمعنويات ، وذلك من خلال استقراء ورود الفعلين في سياق القرآن الكريم.

يقول: «أي بما أنك على صراط مستقيم ، فيجدربك أن تجتهد في الإمساك بمادة إنارة المستقيم وهي الموحي ، أي ليكن فعلك اندفاعاً ذاتياً ، لأن فيه خيرك الدائم الذي لا ينقطع ، أي إن صحة الثاني تستدعي التعلق الذاتي بالأول ، والتعلق الذاتي يحسن معه (استمسك) وليس تمسك أو أمسك ، وفي المعنى وجه آخر ، وهو أن (أمسك) تأتي مع الماديات ، ذلك في كل المواضع الأربعة عشر التي استخدمت فيها ، أما (استمسك) ففي المرات الثلاث التي استخدمت فيها جاءت مع المعنويات ، فالعروة الوثقى هي شيء معنوي ، وهي كمال الهدى ، وكمال الخير ، والوحي: «بالذي أوحي إليك» هو أقرب إلى المعنوي منه إلى المادي ، لأنه مجموعة معان وأفكار في مجال العقيدة والتشريع والأخلاق»[1].

---

(١) سر الإعجاز ، ص/ ١١٢ ـ ١١٣.

وينتبه الدكتور نور الدين عتر إلى جمال صيغة المفاعلة في تفسير الآية الكريمة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٩] ، إذ يقول: «إنه الخداع والمكر البالغ الذي عبّر عنه بصيغة المفاعلة «يخادعون» ، لإفادة المبالغة في فعلهم ذلك ، وحَسْبُك في ذلك أنهم في خداعهم هذا غفلوا عن رقابة الله لهم واطّلاعه على خباياهم»[1].

وفي هذا وضوح الصلة بين المعيار اللغوي والدلالة الجمالية ، كما نضيف أن هذه الصيغة تدل على المحاولة ، المخفقة على كثرتها ، خصوصاً أنه أردف بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩] ، فالصيغة تشتمل على محاولة الخداع ، وذلك أن الله مطلع على قلوبهم.

وقد ورد الفعل يختصمون أربع مرات ، كما في قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] ووردت صيغة «يَخِصّمون» مرة واحدة في قوله تعالى ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

واللافت للنظر ورود «يخصمون» ، إذ أدغمت فيها التاء بالصاد على غير المعهود في قواعد الإدغام ، لأن الإدغام يكون بين الحروف المتقاربة مثل التاء والدال ، وسبب هذا الإدغام الخاص لطيفة تتصل بالمعنى بسببين كما رأى الدكتور عودة الله منيع القيسي.

الأول شدة الخصومة بين فريق إيمان وفريق كفر ، بخلاف الخصومة في أهل الملة الواحدة الذين يتسابقون إلى شرف التكفل بمريم ، ففي «يخصمون» معركة بين أنصار الحق وأنصار الباطل الذي يستبعدون حدوث الوعد والعذاب الأخروي ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

---

(١) القرآن الكريم والدراسات الأدبية ، ص/ ٢٧٨.

هذه الشدة في الخصومة يرافقها انفعال شديد ، يحول دون إتمام الحروف في لحظة الغضب ، فكأن «يخصمون» حكت حالهم فيما استخدموا من كلمات متبورة الحروف أو مدغومة[1] .

والسبب الثاني أن الصيحة داهمتهم وهم يختصمون فأُرتج عليهم ، فأخذت حروف ألفاظهم تضطرب من غير سبب صوتي يسوغ الإدغام ، فكان الإدغام يحكي إشارة ولمحاً[2] ما صاروا إليه من اضطراب في الأصوات ، سواء في الانفعال الشديد أو الارتاح عليهم الذي يزيد في الانفعال انفعالاً قاد إلى الاضطراب التام وإلى عدم استيفاء الحجج .

ويلتقي السبب الثاني بما ذهب إليه البقاعي (ـ ٨٨٥ هـ) إذ يقول : «ولم يقرأ أحد «يخصمون» بالإظهار إشارة إلى أنه لا يقع في ذلك الوقت خصومه كاملة حتى تكون ظاهرة ، بل تهلكهم قبل استيفاء الحجج وإظهار الدلائل»[3] .

ونرى الزمخشري يستشف طبيعة الحدث المتحرك بطبيعته المرئية في الصيغة ، وكأنه يميل إلى القول بالمحاكاة من غير أن يميل إلى الوهم فيما يبدو لنا ، إنه ملحوظة دقيقة بين الاسمية والفعلية ، وذلك كما جاء في تفسيره للآية الكريمة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك : ١٩] .

يقول : «فإن قلت : لم قيلَ : «ويقبضن» ولم يقل : قابضات ، قلتُ : لأن الأصل في الطيران هو صفّ الأجنحة ، لأن الطيران في الهواء

---

(١) انظر الأشباه والنظائر ، للسيوطي : ٢/ ١٣٩ .
(٢) قد ذكرنا هذه المحاكاة في فصل الجمال السمعي في الأنوماتوبيا والحركات والمدود ، ويمكن أن تنظر القضية في نظرية الأدب ، ص/ ١٦٥ .
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي : ١٦/ ١٤٠ .

كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبَسْطُها ، وأما القبض فطارىء على البَسْط للاستظهار به على التحرك ، فجيء بما هو طارء غيرُ أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنَّهن صافّات ، ويكون منهن القبض تارةً بعد تارة ، كما يكون من السابح»[1].

والمقرور به في علم المعاني أن الفعل يفيد التجدد والحدوث ، ويفيد الاسم الاستمرار والثبوت ، ونستطيع أن نقول بعد إدراكه دلالة الاسم والفعل وتمثيلها للثبات والتحرك: إن طول المدّين في كلمة «صافّات» يمثل الثبات في بسط الأجنحة ، وتمثّل الوقفتان بالسكون في كلمة «يقبضن» التحركَ الطارىء ، وواضح أن الزمن في المدّ أطول من الزمن في التحرك ، وذلك في كل من الطيران وفي نطق المفردتين.

وقرين هذا ملحوظته الدقيقة في ما تفيد صيغة المضارعة دون الاسمية ، وإسهامها في التصوير واستحضار الحدث ، وكأنما تراه العين لحظة حدوثه وتسمعه الأذن في الوقت ذاته ، وهذا ما جاء في تفسيره للآية الكريمة في الكلام على داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].

يقول: «ويسبحن في معنى مسبحات على الحال ، فإن قلت: هل من فرق بين «يسبحن» ومسبحات؟ قلت: نعم ، وما اختير «يسبحن» على مسبحات إلا لذلك ، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ، وحالاً بعد حال ، وكأن السامع حاضر تلك الحال التي يسمعها تسبح»[2].

وهكذا نتبيّن أن الزمخشري لا يكتفي بجوانب النظم ، بل يتابع بذوقه

---

(١) الكشاف: ٤: ١٣٨.

(٢) الكشاف: ٤/ ٦٠ ـ ٦١.

جزئيات النظم ، ويشدّ الانتباه إليها ، وإلى فاعليتها في النص ، وفي هذا الصدد يقول الدكتور درويش الجندي: «إن الزمخشري يختلف عن عبد القاهر في كونه بالإضافة إلى نحوّيته لغوياً شديد الحساسية باللغة ، عارفاً بالفروق الدقيقة في بِنْيات النظم فوق تحليله البلاغي للتراكيب النحوية»[1] .

ج - صيغ المشتقات :

للزمخشري وقفات مطولة في سر البناء واحتوائه للفكرة «وهو كغيره من اللغويين والنحاة يرى أن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى ، وأن هذا الارتباط بين المبنى والمعنى أمر تقرّه الفطرة اللغوية»[2] .

ومن هذا المنطلق يبيّن الفرق بين «مرضعة» ومرضع ، وأن للأولى خصوصية تتعلق بسياق الآية وغرضها الجليل ، وذلك في الآية الكريمة في وصف القيامة: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج: ٢] ، وقد رجّح أبو هلال العسكري[3] جمال وجود «مرضعة» على امرأة ، وذلك لإظهار ناحية العطف ومن ثم شدة الاندهاش ، إلا أن الزمخشري يتعمّق في الصيغة ذاتها متأملاً التأنيث فيها ، فهو يرى للتأنيث في الآية جماله المحيط بالفكرة.

يقول: «فإن قلتَ: لم قيل «مرضعة» دون مرضع ، قلتُ: المرضعة التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها للصبي ، والمرضع التي من شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها ، فقيل: «مرضعة» ،

---

(١) النظم القرآني في الكشاف ، د. درويش الجندي ، ص/ ٢٧ .
(٢) البلاغة القرآنية ، د. محمد أبو موسى ، ص/ ٢٩١ .
(٣) الصناعتين ، ص/ ٢٦٥ .

ليدل على ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة»[1].

وبناء على هذا يكون «المرضع» اسماً عاماً ، وتتخذ كلمة «مرضعة» فاعلية كبرى في الحدث ، فتناسب هولَ هذا اليوم ، ومن عادة الزمخشري أن يقلّل من البحث في القانون اللغوي ، لينتقل مباشرة إلى الإيحاء النفسي الخاص بالنص.

وقد قال أبو العباس المبرد عن المؤنث: «فمتى أفاد الفعلية لزمته علامة التأنيث حتى يضارع فعله ، وكقولك أشدنت الظبية ، فهي مشدنة ، وطُلِّقت المرأة فهي طالقة»[2] ويذكر الشاهد القرآني نفسه من سورة الحج ، ويذكر أنه يقال: شدن ومشدنة وطالق وطالقة ، ومرضع ومرضعة.

ويعلّق عليه الدكتور صبحي الصالح: «وكأن المبرد بهذه التفرقة الدقيقة يميز الوصف القائم بالنفس من الحدث العارض الذي هو من أفعال الذات ، وفي تجشّمه هذا التعليلَ المنطقي لعلامة التأنيث في الآية إيحاء بصعوبة التحليل فيما سُمع من الشواهد الأخرى»[3].

ونجد أن الزمخشري يصب جُلّ اهتمامه على تصوير الحدث ، وكأنما أدرك عدم اطراد هذا القانون في كل تأنيث ، فهو سياق خاص بالقرآن الكريم ، والخير النفسي هو المهم عند الزمخشري.

ومما يدعو إلى الانتباه ولم يلتفت إليه الزمخشري الفرق بين «عاصف» و«عاصفة» ، كما في الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) الكشاف: ٣/ ٤.

(٢) كما نقل عنه الدكتور صبحي الصالح في دراسات في فقه اللغة ، ص/ ٨٤.

(٣) دراسات في فقه اللغة. د. صبحي الصالح ، ص/ ٨٤.

كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] ، والآية الأخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقد وصفت الريح في الآية الأولى بأنها طيبة وأنها عاصف ، الأول للمعنى والثاني للفظ ، واختير وصف المعنى لأن السياق إيجابي والحال النفسية رضية مما ناسبه التأنيث «طيبة» لما في التأنيث من رقة ولطف.

وفي الحال الثانية من هذه الآية انزعاج وهلع واضطراب مما يناسبه التذكير «عاصف» لما في التذكير من خشونة ترتبط في الذهن بالقوة[1] ، ويمكن أن نقول تطلبت الشدة مع هؤلاء الجاحدين أن يحذف شيء من الكلمة لتعبر الصيغة عن شدة وسرعة في العقاب.

وفي الآية الثانية ذكرت «عاصفة» بالتأنيث لثلاثة اعتبارات:

- الأول: أنها جاءت على الأصل ، وأصل معنى الريح هو التأنيث ، ولا علة للعدول عن الأصل.
- الثاني: أن المعاني الطيبة في سياق إسباغ النعمة على سليمان وداود عليهما السلام هي معان طيبة ، فهناك تسبيح الجبال والطير وتعليم صنعة اللبوس وجريان الرياح إلى الأرض المباركة ، والمعاني الطيبة تنسجم مع التأنيث لما فيه من نعومة.
- الثالث: أن الفعل الذي جاء بعد الصفة كان مؤنثاً «تجري» مما يؤكد معنى التأنيث في الريح[2].

---

(١) انظر: سر الإعجاز ، د. عودة الله منيع القيسي ، ص/ ١٧٠.
(٢) انظر: سر الإعجاز ، ص/ ١٧١.

وينظر الزمخشري من خلال الصيغة الصرفية في الفرق ين طاهرة و«مطهرة» كما في الآية الكريمة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] ، يقول: «فإن قلتَ: هلا قيل: طاهرة؟ قلتُ: في «مطهرة» فخامة لصفتهن ، ليست في ظاهرة ، وهي الإشعار بأن مطهّراً طهَّرهن ، وليس ذلك إلا الله عز وجل»[1].

فالصيغة الصرفية في البناء للمفعول من المعنى ما يفيد التعدية ، أما طاهرة فتدل على اللزوم ، وفي التعدية إكرام للمؤمن بأن ثمة أموراً مجهزة.

كما يُجري موازنة بين دلالتي الفعل واسم المفعول ، ليصل إلى أن اسم المفعول زيادة في ترسيخ المعنى وإثباته وتقريره ، ثم يدعو المتلقي إلى أن يوازن وينظر من خلال الرجوع إلى الطبيعة النفسية ، ليجد الفرق بين الصورتين ويلتمس المغزى.

يقول في تفسيره الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: ١٠٣]: «فإن قلتَ: لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟ قلتُ: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه لابد من أن يكون ميعاداً مضروباً لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإثبات الجمع إلى الناس ، وأنهم لا ينفكّون منه ، ونظيره قول المتهدّد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك ، فيه من تمكّن الوصف وثباته ما ليس في الفعل ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩] ، تعثر على صحة ما قلت لك»[2].

---

(١) الكشاف: ١/ ٦٢.

(٢) الكشاف: ١/ ٣٣٤.

وقد يبتعد التذوق الفني بالزمخشري في بعض المواقف عن الصواب ومن هذا وقفته التي هي أعلق بالنظم لدى تفسيره للآية الكريمة: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] في وصف اليهود.

فهو يقول عن تنكير حياة: «أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاولة، لأن معنى أحرص الناس أحرص من الناس»(١).

ولا نجد أن تعليله يناسب المقام وسياق وصف الأخلاق اليهودية وتسفّلها، فلا يكون ذمهم في طول الحياة. ونلمح في التنكير إشارة إلى شذوذ حياتهم، فعدم التعريف يعني بأن حياتهم نكرة غير معروفة شاذة عن الحياة السوية، كما أن التنوين يفيد قطع الحياة الذي لا ينتبه إليه هؤلاء الكفرة.

ويمكن أن نجد إيحاء هذا التنكير عند الدكتور حسن ضياء الدين عتر. إذ يقول: «يورد الكتاب المبين الألفاظَ موارد حساسة، فلا تراها قاصرة على المعنى المتبادر منها للبال عادةً، بل تتسع دلالتها، حتى توحي بمعنى أجلّ وأدقّ، خُذْ كلمة «حياة» أنت تشعر بأن كلمة «حياة» قد عبّرت بدقة مرهفة عن حرص أولئك اليهود على أدنى قدر ممكن من الحياة، ومهما كان يسيراً خاوياً من أية قيمة كريمة، فأثار ورودها بالتنكير معنى التحقير، وأفادت بالتالي أن اليهود أشدّ حرصاً على الحياة المتطاولة من باب أولى، فعبّرت كلمة «حياة في هذا المورد بآن واحد عن ضآلة قيمة هذه الحياة الدنيا وشدة تكالب اليهود عليها»(٢).

وفي المتشابه اللفظي ما يثير الإعجاب من التكرار والتنوع الذي يوائم خصوصية موقف دون غيره، ومن هذا قوله عز وجل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ

---

(١) الكشاف: ١/ ٢٩٨.

(٢) بيّنات المعجزة الخالدة، ص/ ٢٥٣.

﴿ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ [النحل: ١٠٩] ، وفي مكان آخر قوله عز وجل: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ [هود: ٢٢].

وثمة أسباب أربعة لهذا التغير ، الأول: أو كلمة «الأخسرون» وردت في وصف قوم افتروا على الله كذباً فصدوا وصدوا غيرهم عن الدين ، فاستحقوا تضعيف العذاب ، إذ ضلوا وأضلّوا فهذا يوجب الزيادة في المعنى ، فاجتماع المعنى الذي.

والسبب الثاني أن آية النحل لا تصور كفاراً أضلوا غيرهم، فلم يذكر في وصفهم ما يوجب مضاعفة العذاب ، ثم كانت الفواصل التي حملت هذه عليها «الكافرين» «الغافلين» فاقتضى هذا الشيئان أن يقال «هم الخاسرون»[(١)].

والسبب الثالث ينتبه إليه ابن الزبير وهو أن «الأخسرون» وردت في سياق دال على المفاضلة ، إذ ورد قبلها ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [هود: ١٨] ، مما يناسب صيغة المفاضلة في «أخسرون».

أما «الخاسرون» فلم تسبق بمفاضلة ، فقد سبقت بقوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ١٠٤ ـ ١٠٥] فليس ثمة مفاضلة لا في اللفظ ولا في المعنى[(٢)].

والسبب الرابع أن «الأخسرون» وردت في سياقها عبارة ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ ﴾ [هود: ٢٦] ، أما وقد وردت كلمة «خسروا» فالأولى عند تكرار صيغة من المادة ذاتها أن تكون أشدّ منها توكيداً ، وهذا التوكيد

---

(١) راجع: درة التنزيل المنسوب للخطيب الإسكافي ، ص/٣١٩ ـ ٢٢٠ ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن ، للكرماني ، ص/٩٧ ، وسر الإعجاز ، د. عودة الله منيع القيسي ، ص/١٥١ ـ ١٥٢.

(٢) انظر: ملاك التأويل، ابن الزبير: ٢/٦٥١ ـ ٦٥٢، وسر الإعجاز ص/١٥٢.

يكون في صيغة الأخسرين وليس الخاسرين ، لأن الأولى أفعَلُ تفضيل ، أي هم أشد خسراناً ، لأن التفضيل فيه من التوكيد ما ليس في اسم الفاعل ، ولهذا لم يرد الفعل «خسروا» مع صيغة «الخاسرون»[1].

ولا بأس أن نعرض لشواهد أخرى ذكرها الدارسون مما يتصل بصيغ الكثرة والقوة ، من هذا ما ذكره يحيى العلوي صاحب الطراز الذي يقول: «قوة اللفظ لأجل قوة المعنى ، إنما تكون بنقل اللفظ من صيغة إلى صيغة أكثرَ منها حروفاً . . وذلك يكون في الأسماء والأفعال ، في الأسماء كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، فإنه أبلغ من قائم ، ونحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، فإن فعّالاً أبلغ من فاعل ، ومتطهراً أبلغ من طاهر ، لأن التواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة بعد مرة أخرى ، وهكذا المتطهر فإنه الذي يكثر منه فعل الطهارة مرة بعد مرة»[2].

وهكذا نجد أن جمال الصيغة في منظوره يقتصر على الكثرة ، وأن الربط بين كثرة الحروف وكثرة المعنى مسألة قررها رجال اللغة وأفاد منها البلاغيون في التفسير ، كما مرّ بنا حول تضعيف العين من الفعل ، كما أن دلالة صيغة المبالغة معروفة ، وكان في إمكان يحيى العلوي أن يشير إلى الدافع الذاتي في فعل التطهر لكونه فعلاً لازماً ، وحب المبادرة إلى فعل الخيرات مما يدل على خيرية المؤمن وفطرته السليمة .

ومن هذا المنهج ما نجده عند ابن قيم الجوزية الذي يذكر قوله عز وجل ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] ، ويضع مثل هذين الشاهدين تحت عنوان «الزيادة في البناء» .

---

(١) سر الإعجاز ، د. عودة الله منيع القيسي ، ص/ ١٥٢ .

(٢) الطراز: ٢/ ١٦٣ .

ويعرّف هذا الباب قائلاً: «وهو أن يقصد المتكلم معنى يعبِّر عنه لفظتان، إحداهما أزيد من الأخرى، فيذكر التي تزيد حروفها عن الأخرى قصداً منه إلى الزيادة في المعنى، فإن اعشوشب واخشوشن في المعنى أكثر وأبلغ من خَشُن وأعْشَب، ولهذا وقعت الزيادة بالتشديد أيضاً، فإن سَتّاراً أبلغ من ساتر، وغَفّاراً أبلغ من غافر»(١).

ومثل هذا الاقتضاب في التأويل نجده عند الإمام الزركشي الذي ينقل شواهد سابقيه، مع تعليق بسيط، وذلك لكون كتابه شاملاً حافلاً لشتى أنواع علوم القرآن الكريم وغير مختص بالبلاغة القرآنية.

يقول: «واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نُقل إلى وزن آخر على منه، فلابد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمَّنه أولاً، لأن الألفاظ أدلة على المعاني، فإن زيدت في الألفاظ وجَب زيادة المعاني ضرورةً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢] فإنه أبلغ من قادر، لدلالته على أنه قادر متمكّن القدرة، لا يُردّ شيء عن اقتضاء قدرته، ويسمى هذا قوة اللفظ لقوة المعنى»(٢).

ويقتضي هذا الأمر من الدارسين توضيحاً، أي ربط الصيغة بسياق الآية التي وردت فيها، فقد ذكر القرآن الكريم كلمة «غفور» أكثر من كلمة «غفّار» وذكر كلمة «قدير» أكثر من كلمة «مقتدر»، إذ ذكرت كلمة غفار خمس مرات، في حين ذكرت كلمة غفور إحدى وتسعين مرة وذكرت كلمة «مقتدر» ثلاث مرات، في حين ذكرت كلمة «قدير» خمساً وأربعين مرة، ونحن نعلم أن البيان القرآني يميل إلى قوة التأثير بجميع الوسائل الفنية وأنجع الطرق الأدبية المعبرة، فكان من المرجّح أن ترد كلمة

---

(١) الفوائد، ابن قيم الجوزية، ص/١٠٦.
(٢) البرهان للزركشي: ٣/٣٨.

«غفار» وكلمة «مقتدر» أكثر من «غفور» ، و«قدير» لكثرة الحروف.

ويبدو أن صيغة «غفور» و«قدير» أدلّ على الصفة الثابتة للخالق عز وجل ، وصيغة «غفار» و«مقتدر» أدل على الصفة الثابتة مضافاً إليها جانب الفاعلية والقصد ، والصفة الإلهية ـ كما هو معروف في العقيدة ـ ثابتة لا تتغير زيادة ونقصاناً.

ومن هذا الباب أهمية صيغة المبالغة من اسم الفاعل في قوله عز وجل يصف اليهود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة: ٤٢] لكثرة هذا الفعل الشنيع عند أولئك القوم ، وليدل بالصيغة على قوة فعل التنفيذ وعلو الهمة في القبائح.

وهنالك صيغ تقوم برسم المشاهد بأدق طريقة فنية ، كما هي الحال في صبغة اسم الفاعل من الفَلْق في الآية الكريمة: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: ٩٥] ، يقول الدكتور نور الدين عتر: «وقد عبّرت الآية باسم الفاعل «فالق» ، واسم الفاعل ينطبق على الفاعل حالَ تلبّسه بالفعل ، وبذلك قوّى القرآن الصورة ، وأدناها منّا ونبّه الإحساس لصورة الفَلْق ، وهي صورة موحية مؤدّية ، جعلت نظرَنا يثقُب الأرض إلى جوفها يشهد أعجوبة فلق النواة والحبّة عن حياة جديدة»(١).

وتحتوي الصيغة عمق المعنى ، وكان للدكتور نور الدين عتر نظرات موفقة ذات منهج واضح سويّ من خلال تفسيره لأوائلِ سورة البقرة محتكماً إلى طبيعة اللغة ، كما في الآية الكريمة ، ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

يقول: «ونلحظ ههنا أنّ وصف القرآن بقوله «هدى» وهو مصدر نكرة ، والمصدر لا يُوصف به ، فالأصل أن يقال «هادٍ» ، لكنه وُصف

---

(١) القرآن الكريم والدراسات الأدبية ، ص/ ٣٢٥.

بالمصدر إشارةً على أنه بلغ في الهداية غاية الغايات ، فأصبح هو نفس الهداية»[1] .

فالتعبير بالمصدر يدل على كلية الاستحقاق ، ومن الوضوح المقنع أن يعتمد الدارس في منهج تبيين الجمال على الموروث اللغوي الذي يمثل معيارية لا نختلف فيها وفي دقة حكمها ، وكأنما نجد المصدر هنا انزياحاً فنياً يلفت الانتباه إلى غرابة الموقف وخصوصية هداية القرآن الكريم وطبيعته الفريدة بين الكتب السماوية وعلوّه على أي كتاب بشري .

د ـ صيغ المصادر :

وههنا لا نبحث في سر اختيار المصدر دون غيره من المشتقات ، بل نبحث في صيغة المصادر نفسها وسر اختيارها دون غيرها من صيغ المصدر ذاته ، فلا شك أن المصدر المختار بناء يملأ الفضاء .

ومن هذا وردت مصادر متعددة في سياقات مختلفة ، كل مصدر يحتوي مقامه ويطابقه ، مثل الإثم كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] في مناسك الحج ، والأثام الذي ورد مرة واحدة في الآية الكريمة : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، وورد التأثيم مرتين : ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴾ [الواقعة : ٢٥] ، و﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ [الطور : ٢٣] .

فالإثم مصدر فعل (أثِم) ، أما الأثام فهو الإثم المضاعف كما يقول الفرّاء بدليل قوله بعد هذا ﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [الفرقان : ٦٩] ، وكأنما أشارت الزيادة في الحروف إلى هذه المضاعفة .

---

(١) القرآن الكريم والدراسات الأدبية ، ص/ ٢٧٢ .

أما التأثيم فهو مصدر (أثَّم) أي سبب الإثم لغيره ، فالمعنى في الآية : لا يسمعون اللغو ولا ما يسبب الإثم من الأقوال في وصف الجنة ، كذلك في وصف المؤمنين يتنازعون كأساً لا لغو فيها ، ولا ما يسبب الإثم كما يحدث في الدنيا[1] .

وكأن الزيادة في حروف التأثيم تفيد هذه القوة الإضافية في تجريم الآخرين وتوريطهم وحضّهم على الإثم ، فإن هذا عمل يحوج إلى مدّ شديد مع الشيطان ، وكل من يسمى إلى تهديم الإسلام في هذه الآونة يلقى من الشدائد ما يزيد على طاقته أحياناً أو يعجب منه الشيطان ذاته .

ومن هذا الفرق بين الأمن والأمنة ، قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء : ٨٣] في وصف المنافقين ، ووردت الأَمَنَة مرتين في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾» [آل عمران : ١٤٥] ، في غزوة حنين ، وقوله : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال : ١١] ولم يفرق الدارسون قديماً بين أمن وأمنة ، وذلك لعدم التدقيق بين محتويات كل سياق على حدة[2] بل نؤيد الدكتور عودة الله فيما ذهب إليه من أنه يوجد فرقان ، الأول يتعلق بالمعنى والثاني يتعلق بالموسيقا .

يقول : «الأول ارتبطت بكلمة (نعاس) في المرتين اللتين فيهما في القرآن ، ولم ترتبط كلمة (الأمن) بالنعاس ولا مرة واحدة من المرات الخمس التي وردت فيها في القرآن ، كأن الأمنة حالة من المعنى أخف من حالة الأمن ، وأقصر وقتاً ، فهي تأتي في تأني في ظرف خوف ، وكأنها

---

(١) انظر : الكشاف : ٤/ ٣٥ ، ونظم الدرر : ١٩/ ١٨ ، وسر الإعجاز ، ص/ ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٢) انظر مثلاً : جامع البيان للطبري : ٩/ ١٢٩ ، ومفاتيح الغيب : ١٠/ ١٩٨ ، والكشاف : ١/ ٢٢٣ ، والعمدة في غريب القرآن ، مكي بن أبي طالب ، ص ٤٢ .

الشمس تشرق في يوم ماطر ، والثاني أن توالي الفتحات في (أمنة) يمنحها معنى التدرّج في تسرب الأمن إلى النفس ، وهذه الظلال لا يحس بها في كلمة (أمن) ساكنة الوسط ، بل هي حال ساكنة مستمرة»[1].

هناك صيغة المحبة والحب ، ولكل واحدة سياق محدد ، وهو أمر خاص بالقرآن الكريم ، ولا يراعى في كتب الأدب ، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، وقال عز من قائل: ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٩ - ٢٠] ، وكانت قد وردت صيغة الحب تسع مرات.

أما صيغة المحبة فلن ترد إلا مرة واحدة مسندة إلى الله عز وجل ، كما في خطاب موسى عليه السلام: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٣٩].

ويمكن أن نجد الفرق بين الصيغتين من أربعة وجوه: الأول أن الحب جاء سلوكاً بشرياً تجاه الخالق أو الموضوعات في حين أسند الخالق إلى ذاته المحبة وقلتها وفرادتها تشيران إلى سمو الذات الإلهية ، فهذا تخصيص لمعنى الكلمة يعود إلى الجهة.

والوجه الثاني أن هذه المحبة أخذت تشع في ذات موسى عليه الصلاة والسلام كما يشعّ ضوء الشمس ونور القمر حتى صار يحبّه الآخرون ، فأحبتْه آسية امرأة فرعون وابنه شعيب ، وأحبه شعيب وعرض عليه الزواج من ابنته.

والوجه الثالث أن «الحب» مصدر أشْيَعُ من المصدر الميمي أو اسم المصدر ، وقد استعمل الشائع مع الكثرة وهم البشر ، والنادر يستعمل مع

---

(١) سر الإعجاز ، ص/١٩٩.

القلة ، وهكذا اقترنت «المحبة» بالله عز وجل لأنه ليس موضوعاً للكثرة ، بل هو الوحدانية عينها.

والوجه الرابع يتعلق بالجانب الموسيقي في نسق الآيات ، وإسهام كل من الحب والمحبة في إيقاع الآية الواردة فيها ، فقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] لا يناسبه أن تكون فيه المحبة.

فكلمة «حباً» تتوازن مع «جماً» ، من حيث عدد الحروف والإدغام وتقارب المخرجين في الباء والميم ، وكذلك نجد خلخلة بين نغمة «ألقيت» و«عليك» ونغمة «حباً» ، إذ يضطر القارىء إلى خطف صوت الكاف من «عليك» مما لا يناسب تراخي السياق العام ، وذلك لأنه عندما تكون الكلمة «محبة» يتبع صوتَ الكاف القصير صوتٌ قصير يأتي من الحرف الأول من «محبة» ولكن عندنا تكون «حباً» فإنه يتبع صوتَ الكاف القصير صوتٌ طويل يتكون من الحاء والباء «حُباً» وهذا خلل موسيقي واضح[1].

ووردت صيغة سراح في الآية الكريمة: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨] ، والآية: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] ، ووردت صيغة التسريح مرة واحدة في قوله عز وجل: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فقد ورد «سراح» لعطف فعل «سرّح» على «متّع» الذي يلزم المتاع لا التمتيع ، فجاء اسم المصدر «سراح» من الفعل ، أما «تسريح» فناسب المصدر «إمساك» ، ويضاف إلى هذا أن السراح أخف من التسريح نطقاً ، ولسهولة نطقها جاءت في موضعين تُطلَب فيهما لسببين:

الأول: أنها وصف بالجمال «جميلاً».

الثاني: أنها جاءت تعبيراً عن معالجة إنسانية وهي معاملة النبي عليه

---

(١) انظر: سر الإعجاز ، د. عودة الله منيع القيسي ، ص/ ٢١٩ ـ ٢٢١.

الصلاة والسلام لزوجته ، والخاطب الذي لم يدخل بزوجته ، فناسب هذه الشفافية أن تأتي أخف الكلمتين وهي «سراح»[1].

وتدل السفاهة على الثبات والرسوخ في حين يدل السَّفه على التغير ، فثمة فرق في الاشتقاق ، فالفعل سَفُه مصدره سفاهة ، أما الفعل سفِه فمصدره سَفَهٌ[2] ، ومعنى الثبات ، والتغير وارد في سياق الآيات: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٠] ، وفي قصة هود عليه السلام: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ ﴾ [الأعراف: ٦٦ ـ ٦٧] فقتل الأولاد حال عارضة في حين أراد قوم هود وصفه بصفة ذميمة ثابتة فيه.

وقد تبين مما سبق إيغال الدارس القديم في صيغ مفردات القرآن الكريم معتمداً على الموروث اللغوي ليكون له معياراً ، وعلى التذوق الذاتي لكشف علاقة الصيغة بسياق الآية وحملها أعمق المعاني.

فتأكد مما سبق جهود القدامى من مفسرين وبلاغيين ولغويين في تبيان جمال الصيغة ، فلا يحق لباحث معاصر أن يسفّه آراءهم وتطلعاتهم الفنية ، إذ لم يكونوا مقصّرين في تأملاتهم.

الحق أن جمال الصيغة لا يمكن أن يخفى على الدارس القديم ، إذ يتمتع بمقدرة لغوية فائقة ويعيش في بيئة فصيحة ؛ فقد لمسوا في الصيغة مواءمة تمام الفكرة ، وأسلوب الإيجاز ، وتصوير الحركة المرئية ، ومساعدة الصيغة على إكمال الصورة البصرية ، ومساعدتها على كشف إيحاءات نفسية وفضاءات رائعة.

---

(١) انظر: سر الإعجاز ، ص/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) راجع كتاب الأفعال ، ابن القوطية ، ص/ ٢٣٣ ، واتفاق المباني واختلاف المعاني ، سليمان بن بنين ، ص/ ٩٩.

وما دام الباحث القديم يحكّم المعيار اللغوي ، ثم يحكّم ذوقه الشخصي في كشف ظلال الصيغة ، فقد ظل بعيداً عن التوقع أو التقوّل والتوهم ، فـإذا ردّ المتلقي إلى اللغـة أقنعـه بمعياره ، وإذا ردّه إلى الـذوق لإدراك الإيحاء النفسي وفق التجربة الإنسانية وجد الأثر في النفس قائماً.

وليس من الصحيح أن القدامى لم يربطوا بين التشكيل الداخلي وبين تغيرات المعنى ، وكأنما لم يسهب أسلافنا في باب «زيادة المعنى لزيادة المبنى» ، هذا جلي في كتب الإعجاز والبلاغة وفي نظرات الزمخشري على وجه الخصوص ، بل نؤكد أننا إذا رجعنا إلى البلاغة القرآنية التي يسهم فيها النحوي واللغوي والمفسر والبلاغي لوجدنا اهتماماً كبيراً بجمال التشكيل ، ومن هذه البلاغة العالية استمد الموقف النقدي أساسه ، إنما كانت نظرات القدامى الذين نعتز بدينهم وورعهم قبل كل شيء مغلقة بمصطلحاتهم الخاصة وطبيعتهم التعليمية التي لم تنتف من ذوق ، فجاءت هذه النظرات مُجملةً أحياناً ، ولكن هذا لم يمنع من تفهمنا لها وتبجيل أصحابها لا أن نتنكّر لجهودهم.

وبعد فالبحث في دلائل الصيغة يحتاج من الدارس إلى ثقافات متعـددة ، لأنه يتصدى لجماليـة ذات أبعاد متعددة ، فينبغي أن يلم باللغـة والصرف والبلاغة ومعطيات النقد الحديث وعلم اللغة والموسيقا اللفظية ، وغير هذا مما لمسناه في نظرات الدارسين قدامى ومعاصرين.

* * *

أدب الكلمات القرآنية

لم يكن ترفع القرآن الكريم من اللفظ الساقط والتعبير المبتذل أمراً خافياً على المفسرين القدامى ودارسي البلاغة ، فقد تنبهوا إلى جمالية ذات صبغة خلقية ، إنها جمالية التهذيب في أسلوب القرآن الكريم مع حرصه على دقة المعنى.

وقد بذلوا جهداً طيباً مباركاً في التماس رفعة البيان القرآني ، وعقدوا لهذا الشأن فصولاً بأسماء مختلفة في مصنفاتهم ، فيها التقليد والجمود وفيها الإثراء النفسي ، فكان طابع التهذيب الذي هو موضوع هذه الفقرة يقع تحت عناوين كثيرة مختلفة مثل «الإشارة» أو «التعريض» أو «التلويح» أو «الكناية» أو غير هذا مما تفنّنوا فيه وفرّعوه.

بيد أن الذي يجمع هذه المصطلحات في سلك واحد هو التلويح عن المعنى في مقام لا يستساغ فيه التصريح ، لصرف النفس عن القضايا الغرائزية المستقبحة ، ويتضح سبب هذا الصرف في سياق الآية ، وإن كان التصريح مطلوباً في مواضع أخرى لا يغني عنه تلويح أو إيماءة.

فلا يلجأ القرآن الكريم أو السنة النبوية إلى استعمال صريح الاسم إلا إذا اقتضته مصلحة تشريعية وعقلية راجحة ، مثل إزالة اللبس أو الاشتراك ، أو نفي المجاز أو غيره ، وهذا أمر معتبر به عند العلماء[1] .

---

(١) راجع الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: ١/ ٢٣٧ .

ويكاد يقصر علماء البلاغة جمالية الكناية التي هي رأس فيما ذكرنا من مصطلحات على التجنب بلفظها عن لفظ مستكره قبيح، قال الثعالبي: «هذا الكتاب خفيف الحجم ثقيل الوزن، صغير الجرم، كبير الغُنْم، في الكنايات عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يُستحيا من تسميته، أو يتطير منه، أو يترفع عنه ويُصان عنه بألفاظ مقبولة تؤدي المعنى، وتفصح عن المغزى، وتحسن القبيح، وتلطف الكثيف»[1].

ويوضح الجرجاني أحمد بن محمد (ـ ٤٨٢ هـ) بُعْدَ التهذيب في الكناية قائلاً: «واعلم أن الأصل في الكنايات عبارة الإنسان عن الأفعال التي تُستر عن العيون عادة بألفاظ تدل عليها غير موضوعة لها تنزّهاً عن إيرادها على جهتها، وتحرزاً عما وضع لأجلها، إذ الحاجة إلى ستر أقوالها كالحاجة إلى ستر أفعالها، فالكناية عنها حرز لمعانيها»[2].

جمالية التهذيب تعني صلة وثيقة وروابط وشيجة بين الفن والأخلاق، وهذا أمر طبيعي في كتاب سماوي يدعو إلى الهداية، فالقرآن الكريم يدعو إلى التحضر في المعيشة والتفكير، بل في التعبير عن المعيشة، خصوصاً أن بذاءة اللسان من خصال النفاق، قال عليه الصلاة والسلام: «الحياء والعَيُّ شُعبتانِ من الإيمان، والبَذاء والبيان شُعبتانِ من النفاق»[3].

هذا من حيث الخلق، وتعود أهمية هذه الدراسة من حيث الفن إلى تبيين وجه من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فلاشك أن طابع التهذيب وترك المحظور من الألفاظ مما يتصل بالنكاح وغيره كل هذا يدل على تمكّن من الفروق اللغوية، إذ تختار كلمة مناسبة يترفع بها القارىء

---

(١) النهاية في فن الكناية، الثعالبي، ص/ ٢٢٠.
(٢) المنتخب من كنايات الأدباء، الجرجاني، ص/ ٤.
(٣) الترمذي، البر والصلة، ح (٢٠٢٨).

ولا يحيف على المقصد الأساسي ، وتومىء هذه الكلمة بظلالها إلى المعنى من غير التصريح به ، مما يؤدي إلى النهوض بالنفس البشرية ، وإبعادها عن الابتذال ، لأن الحياة السوية السامية مطلب القرآن الكريم.

وللتهذيب سمة فنية وبُعْدٌ أدبي يتجاوز معرفة الفروق واحتواء الموقف ، وذلك أن التهذيب يزيد من طاقة التوصيل والتفاعل مع النص ، بعكس ما يصنعه اللفظ المبتذل فالنفس «لا تنفعل مع المبتذل ، لأنها لا تجد فيه شيئاً طريفاً يثير اهتمامها أو يلفت انتباهَها ، وابتذال الشيء يقلّل من أهميته في النفس ، ويشبع حاجتها إليه ، فيقل إقبالها عليه ، ولهذا فإن النص الذي يشتمل على ألفاظ سوقية مبتذلة يفقد قدرته على التأثير»(١).

ويلحظ الدارس أن الكنايات القرآنية اشتملت على قضايا الحلال والحرام ، ويجد كما يقول الدكتور عبد العظيم المطعني أن «ما أطلقه القرآن على الحلال من كلمات تبعث في النفس الرغبة والارتياح ، وما أطلقه على الحرام من كلمات تثير في النفس شعور النفرة والارتياع ، ومتى بلغ أسلوب ما هذه المنزلة من التأثير القوي كان نموذجاً ناجحاً ، وأدباً رفيعاً ، فما بالك بالقرآن وهو في أعلى درجات البلاغة والقوة»(٢).

ولن نُشغلِ بدقائق وتفصيلات في تسمية المصطلح الذي يتضمن التهذيب كما شُغل الدارسون القدامى ، ولن نتجاوز ما ذكروه فلابد أن يكون ما عرضه القديم والمعاصر إنارة لما نرمي إليه من ملامح تصويرية حسية وملامح وجدانية وظلال بين مد وجزر وأبعاد اجتماعية.

لذلك سنعرض لبعض الشواهد القرآنية مما يتصل بالتهذيب في ذكر

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، د. ناجي ، ص/ ٧٤.
(٢) خصائص التعبير القرآني ، د. عبد العظيم المطعني: ١/ ٢٥٧.

النساء أو العلاقة بين الرجل والمرأة ، كما سنعرض لشواهد تتصل بالتهذيب في أمور في الحياة عامة ، جنح فيها البيان القرآني إلى الرمز والإيجاز والترفع بغية المحافظة على سموّ الخطاب السماوي ، وسندرس هذه الشواهد وفق المناهج الأدبية المعاصرة التي تطلق للمفردة آفاقاً بعيدة ، ولكن من غير تقوّل ، وذلك بعد عرض إنارة الدارسين السابقين.

أ ـ في قضايا النساء :

كثيرة هي الإيماءات التهذيبية التي تتعلق بالمعنى الجنسي أو العلاقة بين الرجل والمرأة ، بل إن القرآن الكريم يطلق ويقيِّد في سبيل التعبير الرصين الهادىء المعبر عن المعنى ذاته ، ومن هذا اختيار المسّ لمعنى الاتصال الجنسي العام ، واختيار النكاح لمعناه في الزواج.

وقال عز وجل: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] فههنا المس كناية عن الجماع ، وفيه ما فيه من تكريم المرأة ، والإشعار برهافة حسّها ، وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [مريم: ٢٠] حكاية عن مريم عليها السلام ، وقد تأمل الزمخشري هذه الآية قائلاً: «جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٤٩] و﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [النساء: ٤٣] ، والزنى ليس كذلك ، وإنما يقال فيه: فَجَر فيها ، وخبُثَ فيها ، وما أشبه ذلك ، وليس بقمين أن تُراعىٰ فيه الكنايات والآداب»[1].

ولا يبدو من سياق آية مريم أنها عليها السلام تريد أن تنفي الزواج ، فهو أمر عادي لا يناصبه المجتمع أي عداء ، بل كانت تنفي الزنى ، فليس الأمر كما رأى الزمخشري ، ولكنها عبرت عن الزنا بشيء من لوازمه وهو مس الجسد ، حتى كأنما العدول عن (يمسّني) بالشدة يوحي باستبعاد هذه

---

(١) الكشاف: ٣/ ٦٣٨.

الحركات السيئة ، ففي الفتحة إبعاد وفي الشدة لصوق ، فيبدو أن التعبير بالمس فيه إنكار لكل ما يتصل بالزنى ، وفي هذا ترفع ونفي للصغير والكبير من القضية .

وقد أطلق الزمخشري عبارته ، ورأى أن العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة يُكَنَى عنها بالمس والملامسة ، وأنه ليس يكون هذا في الزنى ، وفي هذا إغفال كبير لموقف هذه الطاهرة الرقيقة التي لا تتحمل مجرد المس ، وإن أرادت منه ورائه ما خمَّنوه .

وينبغي أن نضيف هنا أن البيان القرآني لم يجنح إلى هذه الجمالية من موقع الاعتماد على الفروق اللغوية ، فيصرّح بالزنى ، ويلمح في النكاح المشروع ، فقد عبّر القرآن الكريم عن أبشع الزنى الذي ابتلى به قوم لوط بكلمة موحية إيحاء ظلالياً .

نقرأ على لسان هؤلاء القوم الشاذين في مخاطبتهم لوطاً عليه السلام قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩] ، فعبّرت كلمة حق عن احتواء الموقف بالإيجاز والترفّع ، فهي تحتوي على قمة الهياج الجنسي عند هؤلاء .

والكلمة بعد ذلك على أخلاقيتها الرفيعة التي تطفىء معنى الشَّبَق ، وتزيحه من التصوّر ، تدل على ثقة هؤلاء الماجنين بأنفسهم المعقدة وإمعانهم في سبل الضلال، فهو كما يرون أصحاب حق فيما يذهبون إليه من انحراف .

ومما يتصل بالمس فعل المباشرة الذي نظر إليه الزركشي بإعادته إلى الأصل اللغوي كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ، إذ يقول: «ومن عادة القرآن العظيم الكنايةُ عن الجماع باللمس والملامسة

والرّفَث والدخول والنكاح ونحوهن ، فكنى بالمباشرة عن الجماع ، لما فيه من التقاء البَشَرتين»(١).

ويبدو أن مظهر العفة في الاكتفاء بالمس في دفاع مريم عليها السلام والمس جزئية أولية من عملية الزنى إذا أردنا الإطارين المكاني والزماني لها في حين تبدو المباشرة انفتاحاً وسماحاً كبيراً وتداخلاً بين الجسدين ، لأن الأمر يتصل بالحب الزوجي ، وهو مناسب لحال الاشتياق بعد المنع في نهار أيام الصيام.

وقد عبر عن العملية الجنسية في أول الآية بالرَّفَث وهو في الأصل مجرد الكلام: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] ، ولاشك أن الكلام العاطفي مما يؤدي إلى ممارسة جنسية راقية ، فالكلام هنا يعني ترفع المعاشرة الزوجية والندب إلى الملاطفة في لحظات الغرام الزوجي ، فالقُبَل رسول كما يقول الحديث النبوي عن وجوب الملاطفة قبل قضاء الوطر.

كذلك أومأ البيان القرآني إلى تحريم الاتصال الجنسي في الحج بالرَفث ، وهو في الأصل الكلام المستقبح من ذكر الجماع ودواعيه ، وذلك لأن الكلام مدعاة إلى تحقيق الفعل كما أسلفنا ، قال عز وجل: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال عز وجل عن المهر: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] ، فكلمة أفضى كناية عن الجماع ، وأصلها من الفضاء أي المكان الواسع ، وعلى هذا تدل الكلمة على الاتساع في العلاقة ، وربما رمزت إلى الجمع بين الاتساع النفسي حيث راحة الطرفين ، والاتساع الجسدي وهو الجماع ، فالإفضاء

---

(١) البرهان: ٢/ ٣٣ ، وانظر الإتقان: ٢/ ١٠٢.

بالزواج راحة كبرى ، إذ يتصف بانبساط النفس ، ولاشك أن البيان القرآني قصد إلى هذا النوع من الاتساع ، ليشيد بروحانية الزواج ، حتى غدا كل واحد من الزوجين فضاء لقرينه ، وليس بعد هذا تعبير أعمق عن أعمق الحب.

وفي هذه الآية الكريمة ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٢١] ، أي لا تأخذوا ما يقدم للنساء من مهر بعد الطلاق ، فإن الإفضاء يفيد الاتصال والخلوة والمضاجعة وقد يفيد الإسرار والحديث الداخلي والمناجاة وإلى جانب ما يفهم من أمور حسية ، فهو لفظ كلي واسع يعني الخلاص من تصريح ما يُستَحْيىٰ منه ، والكلمة بعد هذا جامعة للمعاني الروحية والحسية.

وينظر الزركشي في متابعته هذه الجمالية على الأصل اللغوي للمفردة كما في الآية الكريمة ، ﴿وَالَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] ، والآية: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥] من غير النظر إلى سياق الاستخدام القرآني الذي لا يريد المعنى الأصلي كما هو معروف.

يقول: «أخطأ من توهّم هنا الفرج الحقيقي ، وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها ، وهي كناية عن فرج القميص ، أي لم يعلَقْ ثوبَها ريبةٌ ، فهي طاهرة الأثواب ، وفروج القميص أربعة: الكُمّان ، والأعلى والأسفل ، وليس المراد هذا ، فإن القرآن أنزَهُ معنىً ، وألطفُ إشارةً»[١].

وكأنه ينظر إلى مجازية المكان في قوله عز وجل: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدّثر: ٤] الذي يعني تطهير الجسد ، وعلى هذا المنزل دلّنا في المكان نفسه على لطيف العبارة وتنزهها في قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصّلت: ٢١] ، فقد كنَى التعبير القرآن بالجلود عن الفروج

---

(١) البرهان: ٢/٣١٨ ، والإتقان: ٢/١٠٢.

الحقيقية ، وتبدو كلمة الجلود هنا مخضلة بالدوافع الحسية الخالصة في الفعل الجنسي الحيواني في حال الزنى.

وكذلك الآية: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ [النور: ٢٦] التي فسّرها الزركشي على أنها كناية عن الزّناة ، وكأن الكلمة تومىء إلى الخراب النفسي عند الزاني ، فشناعة تصرفاتهم انعكاس لسوداوية نفوسهم ، ووجهتهم المعوجة في كل تصرف.

وننظر في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥] ، فنجد الترفع والسمو في الخلق الجديد في الآخرة مما يتطلب الرفعة في الكلام على الخلقة الجديدة للمرأة ، فإن من الحق والترفع أن تذكر طهارة النساء في الجنة ، لأن كثرتهن أبعد ما تكون عن كونهن حِلاً لكل رجل ، فلكل مؤمن زوجاته الخاصات ، والتطهير هنا يدل على رقي في طبيعة المرأة في الجنة وإبعادها عن الحيض والنِّفاس ، بل يدل على طهارة الروح أيضاً.

بل ينفّر التعبير النفَس البشرية ويخلق فيها الاشمئزاز من المحرّم بكلمة الأذى التي تكون نتيجة للاتصال أيام الحيض وهو الأذى الجسدي والنفسي وكلاهما مرعب. قال عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وهكذا نستيقن أن القانون القرآني يستبعد وقوع النفس في الجريمة قبل حدوثها ، وقد عبّر عن حال القبح بالطابع المَرَضي حتى يمتزج القبيح بالمخيف، فيحصل النفور، كذلك عبر في الآية بالقرب، «ولا تقربوهن» ، حتى لا يقع المرء في مأزق ، فثمة قوة قبل وقوع الضعف.

ومن هذا التعبير عن الزنى بالفاحشة أي التوسيع من ضررها ، والتذكير بعيوبها ، نقرأ ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟

عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، كذلك فعل الإتيان أقل مواجهة وألطف تعبيراً من الفعل.

بل إن البيان القرآني ليزداد ترفعاً فتحذف الفاحشة من السياق في الآية التالية زيادة في التهذيب، وإيماء إلى استبعاد حدوث الأمر بين المؤمنين المخلصين من خلال تغييب مفردة الفاحشة، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

ويغيّب الاتصال الجنسي الشاذ على لسان لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١].

فالذي يسترعي الانتباه في هاتين الآيتين كلمات لها دلالات خلقية تترجَّح بين التصريح والتلميح: أتأتون الفاحشة، الرجال، شهوة، مسرفون، فقد أومأ إلى الشذوذ الجنسي بالفعل «أتأتون»، وعبّر بالفاحشة لتعميم الضرر الاجتماعي، وجرّح من مشاعرهم بذكر الرجال مما ينفِّر النفس الشاذة لأنها تذهب إلى جنسها، أما كلمة شهوة فهي تضع اليد على المصيبة، لأنها شهوة فيها توسع شيطاني، فكيف يقرن بين الرجل والرجل، وذكر الرجال بذكّر بالرجولة والفحولة وهذا منفِّرد، أما الكلمة الأخيرة فهي «مسرفون» وفيها تلطّف لاستجماع قلوبهم إلى الحق، بدلاً من ذكر عبارات التحقير.

وذكر المفسرون شنائع متعددة لقوم لوط، قد أجمل القرآن الكريم وتلطف في التعبير وجاء به عاماً في خلال التنكير قال عز وجل: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

وكذلك الآية الكريمة التي تحدد تنزيه الخالق، إذ يقول عز وجل:

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٠١] ، فقد آثر البيان القرآني كلمة «صاحبة» ليدفع ادعاء المبطلين ، وذلك لأن الصاحبة تدل على المصاحبة المؤقتة بين الرجل والمرأة في الدنيا والنقص البشري المتجلي في الحاجة إلى مؤنس وصاحب من نوع آخر ، وقصر فترة هذا اللقاء ، ولله الزمن المطلق وهو الغني الحميد ، ولم يقل كلمة: زوجة ، لأنها ربما أوحت إلى النفس بتفاصيل حسية تبارك الله وتعالى عن هذه الطبائع البشرية ، وإن كان الأمير بصدد نَفْيِها.

ومن هذا القبيل سؤال زكريا عليه السلام ربّه: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠] ، وسؤال مريم عليها السلام: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ [آل عمران: ٤٧] فقد جاء الجواب مشتملاً على مناسبة كل واحد منهما.

يقول الدكتور تمام حسان: «فأجاب الله زكريا بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٠] وأجاب مريم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٤٧] ذلك أن التعبير بلفظ (يفعل) في حالة زكريا لا يثير خواطر سيئة ، لأن زكريا وامرأته زوجان ، فلا شبهة إن حملت المرأة ، لأن زوجها بجانبها ، وقد كان إخصابه بواسطة تسخير زوجها لذلك ، والتسخير والإخصاب من فعل الله ، أما في حالة مريم فإن التعبير بلفظ (يفعل) ربما أثار خواطر سيئة ، فاللفظ هنا لهذا غير مناسب «من هنا جاء الفعل (يخلق)»[1].

وكذلك ينظر الدكتور تمام إلى قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء: ١١] والأعلى ثقافته اللغوية في المشترك اللفظي ، ويتأمل لفظة «أنثيين» التي استبعدت لفظة أخرى قد تثير معنًى غير لائق بأدب القرآن الكريم وذلك من غير الحيف على المعنى التشريعي.

---

(١) البيان في روائع القرآن. د. تمام حسان ، ص/ ٢٩٧.

يقول: «لاشك أن المقيس عليه عند التقسيم هو نصيب الذكر ، لأنه هو الذي يمثل الواحد الصحيح من الناحية الحسابية ، ولو اعتدت الآية بذلك لقالت: للأنثى مثل نصف حظ الذكر ، أو للأنثى نصف الذكر على حذف مضاف ، ولكن لفظ الذكر من المشترك اللفظي ، حتى ليدل بين معانيه على عضو الذكورة من الرجل ، ولما كان الأمر كذلك حالَ معنى المُلْكية الذي في اللام الجارة للأنثى دون أن يأتي لفظ «الذكر» أي صورة نظراً لما يثيره ذلك من معنى ممجوج مرفوض ، وهكذا جعل النصف وهو نصيب الأنثى مقيساً عليه ، وجعل الواحد وهو نصيب مقيساً ، فقيس نصيب الذكر بنصيب الأنثى»[1].

والدراسات المعاصرة للإعجاز البياني لم تُعن كثيراً بحال الرموز في الأمور الجنسية ، وكأنما وجد المعاصرون ما هو كفاية في كتب سلفهم وعلى رأسهم الزمخشري الذي عني بالدلالة وآفاقها النفسية ، فالذي شغل المعاصرين هو ما شغل القدامى أيضاً ، ونعني به الصورة الفنية البصرية.

ولابأس أن نتأمل جمال التعبير عن طبيعة العلاقة بين الزوجين وعملية الجماع في قوله عز وجل: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ونرى أن التعبير القرآن قد عبر عن سمو هذه العلاقة بالسكينة التي هي شرط أساسي في حياة الرجل والمرأة ، وقد قدمت هذه اللذة الروحية على لذة الجماع ، والسكينة تتصل بالسكن والأمان ، فالمرأة الصالحة بيت عواطفه ووعاؤه الشعوري والجسماني ، وما دامت العلاقة تتصل بالسكن والسكينة فهي ترمز إلى التحضر البشري والابتعاد عن الطبع الوحشي

---

(١) البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان ، ص/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

والفوضى عند الحيوان ، إنه الهدوء مقابل لهاث الحيوان وراء الغرائز واللذات الجسمانية والمخاطر.

وصيغة المضارعة في فعل «يسكن» ما يدل على تجدد هذه اللذائذ الروحية والحسية مع استمرار الحياة ، أما الخلق فيحدث مرة وكذلك الحمل ليس حدثاً مستمراً ، فكان التعبير عنهما بالماضي للإعلاء من شأن العلاقة.

وإذا أردنا أن نعود بالكلمة «تغشّاها» إلى الأصل اللغوي شأن الزركشي نصل إلى دلالات رفيعة ، فالكلمة تعني التغطية ، فكأن الرجل غطاء المرأة ، وهذا الغطاء يدل على استبعاد الطبع الوحشي في الغابة ، فهو رمز أمان وتحضّر ، والتغطية تدل بعد هذا على رضاها التام بزوجها ، فلا ترى غيره ما دام الغطاء يحجب الرؤية ، أو أن لذتها معه تفوق كل اللذائذ الإنسانية الأخرى ، وهذا هو المثل الأعلى الذي يجليه البيان القرآني للحب الزوجي والإنجاب وعمارة الأرض.

وتتعدد ألفاظ ذات أبعاد خلقية في قوله عز وجل عن خطبة المرأة الأرمل: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

فأول ما نجد في الآية مراعاة المشاعر الإنسانية في الحب ، فذكر الجناح من بين الأخطاء وهو الذنب البسيط ، والتعبير بالتعريض «عرّضتم» والتعريض في البلاغة من أشكال الكناية ، فلا يصرح برغبته في الخطبة ، ولكن يعرض بألفاظ توهم أنه يريد نكاح تلك الأرمل ، حتى لا يجرح مشاعرها بعد موت زوجها.

يقول الزمخشري: «هو أن يقول لها: إنك لجميلة أو صالحة أو نافعة

ومن غرضي أن أتزوج ، وعسى أن ييسر لي امرأة صالحة ، ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح بالنكاح ، فلا يقول: إني أريد أن أنكحك أو أتزوجك أو أخطبك»[1].

وما دام هو يعرف ما يقصد، وهي تفهم مبتغاه من وراء هذه الألفاظ ، فالمؤدّى أن الستر وعدم الجهر مما يناسب الأخلاق الرفيعة ومراعاة مشاعر الآخرين ، بل إن هذا التعريض يدل على كتم المشاعر وعلى عمق الحب ، وعلى أنه سبب لهذا الزواج الذي يبدأ باحترام الزوجين.

ويلحظ هذا الحب المكتوم في تعبير «أكننتم» الدال على تعطيل اللسان وعدم الإفصاح عن المشاعر ، وهكذا لا يبدو الرجل فظاً قاسياً جَلِفاً ، ولا تبدو المرأة شبقة قليلة الوفاء للزوج السابق ، ونجد في هذه الآية كلمات متعددة تدل على الوجود الداخلي مثل «أعرضتم» و«أكننتم» و«أنفسكم» تلك الكلمة التي تدل على التفكير بتلك المرأة في حديث داخلي (مونولوج) ، وكذلك كلمة «سراً» التي تفيد النكاح.

ومما يتصل بالنساء أن القرآن الكريم إلى جانب تكريمه المرأة وإعلاء شأنها كرّمها في الحديث عنها ، فقد راعى أدب السكوت عن الأسماء ، وهذا يتصل بالجانب الاجتماعي عموماً ولا يقتصر على البيئة العربية.

يقول الزركشي: «إن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم ، ولا يبذلون أسماءَهم، يَكْنُون عن الزوجة بالعُرس والعيال والأهل ونحوه، فإذا ذكر الإماء لم يكنّوا عنهن، ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها ، فلما قالت النصارى في مريم وابنها ما قالت ، صرّح الله تعالى باسمها ، ولم يكنِّ عنها تأكيداً لأمر العبودية التي هي صفة لها ، وإجراء

---

(١) الكشاف: ١/ ٣١٠.

للكلام على عادة العرب في ذكر أبنائها ، ومع هذا فإن عيسى لا أب له ، واعتقاد هذا واجب ، فإذا تكرّر ذكره منسوباً إلى الأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه ، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله»[1].

فهذه الخصيصة واردة في سياق القصة القرآنية ، وقد: «ذكر القرآن من الصالحات أم مريم ، وذلك بنسبتها إلى زوجها في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ [آل عمران: ٣٥] ، وكذلك ذكر القرآن من الصالحات منسوبة إلى زوجها امرأة فرعون ، وأما غير الصالحات من النساء ، فقد جاء ذكرهن كذلك منسوبات إلى أزواجهن في قصص القرآن»[2].

وهكذا نفسر ذكر اسم مريم عليها السلام ، وبكونها تنفرد بحال خاصة ، فهي أم من غير زوج ، وقصة حملها خرق لنواميس الطبيعة البشرية ، وهذا الذي نراه من كتمان الأسماء موجود عند جلال الدين السيوطي تحت عنوان «المبهمات»[3] وذكر عنده أسماء النساء ، والصحابة والمنافقين فيما ينتمي إلى علم أسباب النزول.

ويبدو لنا ترجيح الجانب الفني الذي يضاف إلى مسألة الأدب في عدم ذكر أسماء النساء ، فإن القضية تدور حول نموذج أبطال القصة ، فمن هنا يجيء ذكرهن منسوبات طبيعياً ، إذ المهم أن يستمر الحدث القصصي حتى مرحلة الاعتبار ، والأسماء لا تغير من طبيعة الشخصيات.

---

(١) البرهان: ١/ ٢١٠.
(٢) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح ، أحمد موسى سالم ، ص/ ١٢٠.
(٣) انظر الإتقان: ٢/ ٣١٤ ـ ٣٢٩.

ب ـ مع قصة يوسف:

نجد في قصة يوسف عليه السلام إعلاء من شأن الإنسان الذي يسيطر على غرائزه ويضيف النوازع المريضة، ويكبح الدوافع الحيوانية، العفة صفة المسلم، وكان يوسف نموذجاً الشباب العفيف والتقوى في اللحظات الحرجة، وفوق هذا فقد عبّر القرآن عن محنته بألفاظ تهذيبية.

يقول الدكتور نجيب الكيلاني: «إنها قصة جنسية بكل مقومات القصة، ولكن أي جنس وأية قصة، الظلال الموحية، موسيقا الألفاظ، المواقف الدرامية، عصر التشويق والمتابعة، ثم الانتصار لفضائل الإنسان وقوة الروح في النهاية، حتى امرأة العزيز الخاطئة انتصرت فيها قُوى الخير، وعادت إلى رشدها، وطأطأت رأسها إجلالاً وتوقيراً لإنسان كبير وقف صامداً كالعَلَم في مواجهة الثورة الغريزية الجارفة وانتصر»[1].

نقرأ في هذه السورة: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٣]، يقول الرافعي متأملاً هذه الآية: «عجباً للحب هذه مَلِكة تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمن بخس، ولكن أين ملكها وسطوة ملكها في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: «وراوته التي» و«التي» هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنة من كانت، فلم يبق على الحب ملك ولا منزلة، وزالت المَلِكة من الأنثى».

ويقول: «أعجب من هذه كلمة «روادته» وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لونٍ بعد لون، ذاهبة إلى فن، راجعة إلى فن، لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدان الإبل في مشيئتها، تذهب وتجيء في رفق، وهذا يصوّر حَيرة المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها، ومحاولَتها إلى أن تنفُذَ إلى

---

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، د. نجيب الكيلاني، ص ٦٠ ـ ٦١.

غايتها ، كما يصور كبرياء الأنثى ، إذ تختال وتترفق في عرض ضعفها الطبيعي ، كأنما الكبرياء شيء آخر غير طبيعي ، فمهما تتهالك على من تحب وَجَب أن يكون لهذا الشيء مظهرُ امتناع أو مظهر تحيّر أو مظهر اضطراب ، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصمّمة».

يقول: «ثم قال»: «عن نفسه» ليدل على أنها لا تطمع فيه ، ولكن في طبيعته البشرية ، فهي تعرَض لهذه الطبيعة وحدها ، وكأن الآية مصرِّحة في أدب سام كلَّ السمو ، منزّه غاية التنزيه من معناه: إن المرأة بذلت ما تستطيع في إغرائه وتصبّيه ، مقبلةً عليه ، ومتدلِّلة ومتبذلة من كل جهة بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية ، وعارضة كل ذلك عرض امرأة خلعت ـ أول ما خلعت ـ أمام عينيه ثوبَ المُلْك»[1].

ويقول الدكتور تمام حسان: «تجنبت الآية لفظ «سيدته» تكريماً له وتحقيراً لها ، وهذا شبيه بما في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١] ، فليس هو سيداً ليوسف ، وليست هي سيدة له ، ومما يدل على إرادة تجنب لفظ السيادة في حالة يوسف بذاته قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥] ، فجعله سيدها ، ولم يجعله سيده هو ، أما قول يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٢٣] ، فذلك كلام يوسف ، وليس كلاماً عن يوسف»[2].

ونقرأ في هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] تلك السورة التي تعد منهجاً أخلاقياً ، ودرساً ربانياً في الصبر على البلاء والشهوة ، وهذا لفعلان «همّت» و«همّ» يختزنان بهدف روح الأدب الرفيع كلَّ تفاصيل الحادثة.

---

(١) وحي القلم ، الرافعي ، ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٢) البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان ، ص/ ٣٢٠.

وإلى هذا أشار أبو السعود العمادي في تفسيره قائلاً: «ولعلّها تصدّت هنالك لأفعال أخَر، من بسط يدها إليه، وقصد المعانقة، وغير ذلك مما يُضطره عليه السلام إلى الهرب نحو الباب، ولقد أُشير إلى تباينهما حيث لم يُلَزّا في قرَن واحد من التعبير بأن قيل: ولقد همّا بالمخالطة، وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النيّر على ما هو عليه في حدّ ذاته أقبحَ ما يكون»(١).

فقد اكتفى البيان القرآني بذكر الهمة والقصد، فما قرأنا انكشاف صدور، أو نزع ثياب، أو أصوات وتأوهات كما هي الحال في كثير من الأدب الروائي المكشوف، مما يثير في المتلقي الغرائز الحيوانية، ويستفز النوازع المريضة.

وفي هذا الصدد يقول الرافعي: «وهنا يعود الأدب الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز، فيقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] كأنما يومىء بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه، وتعلقت به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهي لمس الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمرة في الهشيم»(٢).

وثمة لفظة تهذيبية وجد فيها الدكتور تمام حسان مناسبَة لواقع الحادثة، كما في الآية الكريمة: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، ففي ذكر الأهل لطافة وحشمة ولكنها مستنفرة لغضب الملك.

يقول الدكتور تمام حسان: «عدلت عن قولها: من أراد بي سوءاً إلى أن تجعل إرادة السوء موجهة إلى أهله، لتصرف العدوان من أن يكون

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٤/٢٦٦، ولم يلزّا: لم يلتصقا، والقَرَن في الأصل: حبل يُجمع به البعيران.

(٢) وحي القلم، الرافعي: ١/١٠٦.

عليها هي إلى أن يكون عليه هو استداركاً لغضبه من أجل كرامته ، ولو قالت: من أراد بي ، لتركت له الفرصة للتأمل في صدق قولها أو كذبه ، أو لكان له أن يقول لها: ولماذا تركت له الفرصة حتى أراد بك السوء؟»[1].

ونرى أن الأهم في هذه الآية أن نقف على كلمتي «أهلك» و«سوء» والأولى تدل على كرامة العائلة ، وخدشها يعني انتزاع الأمان من النفس لأنها مقابل الوحشية ، كما أن كلمة «سوء» مختصر الفعل الشنيع وهو إرادة الزنى ، وهي توجز التدبير عن فعل قبيح.

إن كلمة «أهلك» تذكرنا بالآية الكريمة عن الزواج من الإماء: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥] ، فقد عدل القرآن الكريم عن لفظ أسيادهن ، لإكسابهن الكرامة ، فالأَمَة تحس وفق المعايير الإسلامية الصحيحة بأنها بين أهلها ولا تكون كائناً ذليلاً.

لقد تجلت السمة الأخلاقية في سورة يوسف في غايتها الكلية المستمدة من سيرة هذا النبي عليه السلام ، ومن انتقاء المفردات المعبرة عن محنته ، فعلى لسان زوجة الملك نقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] غاية ما تتفوّه به امرأة غاوية بين رفيقاتها.

ويتضح طابع التهذيب والسمو في الاكتفاء بظلال كلمة «يفعل» وكلمة «ما آمره» ، بهاتين الكلمتين تم التعبير عن شهوة عارمة ، وهذا يتمشى وطابع الدين الإسلامي الذي يدعو إلى تهذيب الغرائز وتوجيهها ، والحدّ من فاعليتها ، وليس قتلها ، وكذلك يكمن هدف القصة القرآنية في

(١) البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان ، ص/ ٣٢٠.

الموعظة والاعتبار، ولا حاجة لتصوير فيخدم الفن لأجل الفن.

ونختم كلامنا على سورة يوسف مما ذكره الروائي المشهور ليون تولستوي (ـ ١٩١٠) الذي ما فتىء يسفِّه الأدب المكشوف والتعزِّي في المسارح، ويدعو إلى ضرورة التحلي بالأخلاق والدعوة إليها في مضمار الأدب والفن عموماً.

يقول: «لا حاجة في قصة يوسف، كما هو دارج اليوم إلى تصوير تفصيلي لثياب يوسف المدمّاة، وسكن يعقوب وثيابه، ووقفة زوجة عزيز مصر وثيابها، وكيف تعدّل وضع السوار في يدها اليسرى وتقول: «هيت لك»، لأن مضمون الأحاسيس في هذه القصة عميق إلى درجة أن جميع التفاصيل أهمها قبل دخول يوسف إلى غرفة ثانية لكي يبقي جميعها زائدة شأنها أن تعيق نقل الأحاسيس فقط، ولذلك فإن هذه القصة مفهومة بالنسبة إلى جميع الناس، وتوثر في كل الناس في كافة القوميات والأعمار»[1].

ج ـ آفاق أدبية عامة:

وقد حض القرآن الكريم على سلوك الأدب في أمور الحياة، وذلك علم مستوى التصرفات الحركية والتصرفات القولية، لأن تراكم قلة الأدب يفسد العقيدة، ويعطّل الأمور اللازمة لمسيرة الدين.

وهكذا نجد أنه عطف بالصحابة الكرام من السؤال عن الأمور الكونية إلى الأمور الأقل شأناً مما يتصل بالحياة الاجتماعية، وهذا ما يعرف بالبلاغة بأسلوب الحكيم، قال عز وجل: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

---

(١) ما هو الفن، تولستوي، ص/٢٠٩.

وكان الزمخشري أكثر المفسرين الذين اهتموا بالدلائل التهذيبية ، وذلك لعنايته الفائقة بالمفردة ووقفته المطولة عند المفردة وأثرها النفسي ومطابقتها للمقام وإيحاءاتها ، من هذا وقفته عند كلمة «أصابعهم» من قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ ﴾ [البقرة: ١٩].

يقول: «فإن قلت: فالأصبع التي تُسَدّ بها الأذن أصبع خاصة ، فلم ذكر العام دون الخاص، قلتُ: لأن السبَّابة فعّالة من السبِّ، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن ، ألا ترى أنهم قد استبشعوها ، فكنوا عنها بالمُسَبِّحة والسبَّاحة، والمهلِّلة والدعّاءة ، فإن قلتَ: فهلاّ ذكر بعض هذه الكنايات؟ قلتُ: هي ألفاظ مستحدَثة لم يتعارفها الناس في ذلك العهد»(١).

لقد رأى في ذكر كلمة «سبابة» مدعاة لتذكر فعل السب ، وهو محرم في القرآن الكريم ، يقول عز وجل: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ، فلا يصبح اسمه الجليل ممتَهناً على الألسنة.

هذه لفتة جميلة من الزمخشري ما دام سائر المفسرين والدارسين(٢) يجدون في استخدام كلمة الأصابع لوناً مجازياً لغوياً ، أي إطلاق الكل على الجزء ، وذلك من غير التنبيه على رفعة الأسلوب القرآني.

وكذلك الآية الكريمة: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٦] ، فيتأمل الزمخشري جمال مناسبة الحشر للمؤمنين والسوق للمجرمين.

---

(١) الكشاف: ١/ ٢١٧ ، وانظر مدارك التنزيل للنسفي: ١/ ٢٧.

(٢) انظر مثلاً: البرهان: ٢/ ٢٧٩ ، والإتقان: ٢/ ١٧٨ ، وإرشاد العقل السليم: ١/ ٥٣.

يقول: «ذُكر المتقون بلفظ التبجيل، وهو أنهم يُجمعون إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، وخصَّهم برضوانه وكرامته، كما يفد الوفاء على الملوك منتظرين الكرامة عندهم، وذُكر الكافرون بأنهم يُساقون إلى النار بإهانة واستخفاف، كأنهم نَـعَم عِطاش تُساق إلى الماء»[1].

ويبدو أنه يقارن من هذه الحال الخاصة بغضِّ النظر عن سياق آخر، فهو يريد تخصيص نوع من الأفعال في موقف الموازنة فحسب، أي عندما يذكر مصير كل من المؤمنين والكافرين معاً في مكان واحد، فجعل الحشر للمؤمنين والسوق للكافرين.

والقرآن الكريم يسند فعل السوق إلى المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]، فالفعل هنا لا يتخذ أبعاد ما كان في الآية الكريمة السابقة، فهو يعني مجرد الجمع، وهنالك يقترب من معنى جمع البهائم.

وكذلك لم يخصص فعل الحشر في القرآن الكريم للمؤمنين، فهو يُسند إلى الكفاء والشياطين وسحرة فرعون، كما في الآية الكريمة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]، ويُسند إلى الوحوش ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وهذا لا يعني عدم إحاطة الزمخشري، بل يدل على تذوقه الموازنة بين مصيرين في مقام تُقصد فيه الموازنة.

ومن هذه اللفتات الجيدة التي نبهته عليها الموازنة ما جاء في الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ١٤١]، أي ألم نغلبكم فأبقينا عليكم، وهذه حال المنافقين، انتهازية مستمرة وذبذبة

---

(١) الكشاف: ٢/ ٥٢٤، وانظر مدارك التنزيل للنسفي: ٣/ ٤٥.

لتفكيك المجتمع ، ويوازن الزمخشري بين الفتح والنصيب.

يقول: «فإن قلتَ: لمَ سمّى ظفر المسلمين فتحاً ، وظفرَ الكافرين نصيباً؟ قلتُ: تعظيماً لشأن المسلمين ، وتخسيساً لحظ الكافرين ، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه ، وأما ظفر الكافرين ، فما هو إلاّ حظ دنيء ولَمْظةٌ من الدنيا يصيبونها»[1].

وهكذا يحاول الزمخشري جاهداً أن يقنعنا بجمال المفردة القرآنية معتمداً معايير مختلفة من اللغة والبلاغة والواقع النفسي ، إذ يعتمد معطيات الذوق السليم والفطرة والمنطق والاستعمال الصحيح للغة ، وهذا يطرد في كل جوانب جمال في كل جوانب جمال الكلمة على القرآنية ، ولا يقتصر على جانب الدلالة التهذيبية.

ومن هذا الشواهد التي ترد في أبواب الكناية عند البلاغيين ، مثل قوله عز وجل: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] في الكلام على عيسى وأمه عليهما السلام ، وكذلك الآية الكريمة ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [المائدة: ٦] ، وذلك لأن الحدث ملازم لأكل الطعام ، وأن الغائط في الأصل هو المنخفض من الأرض يُقصد لقضاء الحاجة ، فسمي الحَدَث باسم موضعه[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] ، فثمة فرق بين المس والإحراق ، يقول ابن أبي الإصبع: «الركون إلى الظلم دون فعل الظالم نفسه ، ومسّ النار دون إحراقها ، والدخول

---

(١) الكشاف: ١/ ٥٧٣ ، وانظر مدارك التنزيل للنسفي: ١/ ٢٥٧ ، واللمظة: اليسير من الشيء تأخذه بالأصبع.

(٢) انظر مثلاً تحرير التحبير ، لابن أبي الإصبع ، ص/ ٤١٨.

فيها ، والعدل يقتضي أن يكون العقاب على قَدْر الذنب»[1] .

ويظهر أنه ينطلق من خلال الحس اللغوي بالفروق ، فمقتضى الحال يتطلب المسّ ، لأن المخاطَبين مؤمنون ، فلابد من الملاطفة في خطابهم وتحذيرهم .

وقرين هذا قوله عز وجل في سورة الأنفال: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٨] ، وذلك لقبول الصحابة بفداء الأسرى ، في حين تُخصص مفردات الإحراق التام والصديد والنار في البطون والمقامع والملائكة الغلاظ للكافرين والمجرمين ، فالمس يدل على ملاطفة في التنبيه فضلاً عن الجرس الهادىء الهامس للكلمة، ويعدّ ما ذكره ابن أبي الإصبع بادرة فنية تستند إلى مقياس العدل في العقاب .

وقد دعا القرآن الكريم إلى تطهير الجسد ، كما دعا إلى تطهير الروح من دَرَن الدنيا وخبائثها بالأفكار الملوثة ، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المائدة: ٩٠] ، فكلمة رجس ، تنم على إبعاد المؤمن عن أخلاقية دنيئة ، منشؤها معاقرة الخمر ، واتباع الأصنام ، ولعب القمار ، هي على تهذيبها تشتمل على تحذير ، حتى يتصور المرء الرجل السكير قطعة نجسة ، وأن المشرك ملوث من الداخل والخارج تلويثاً غير حاضر الحس ، لأنه من عمل الشيطان مما يزيده ترهيباً ، إنها كلمة واحدة مهذّبة مختزلة .

وكان التعبير عن فظائع الكافرين بكلمة «آسفونا» في قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] ، وهذه الكلمة لا تتصل بالكناية أو التعريض أو الإلغاز مما قصر عليه القدماء جمالية التهذيب ، وإنما هي كلمة ترد على شفائع الكفار من استكبار واستهزاء ، وعبادة

---

(١) تحرير التحبير ، ص/٤١٨ .

أصنام وقتل وشذوذ ، وهي كلمة أَليَقُ بالذات الإلهية التي تقدم الرحمة على الغضب ، وأن هذه الشنائع مهما بلغت من أوج الوحشية لا تؤثر في ذاته تعالى.

وواضح أن البيان القرآني جعل الجهر بالسوء فعلاً قبيحاً في شتى الأمور، حرصاً على تماسك المجتمع المؤمن إن كان التعبير داخل المجموعة الإسلامية ، وحرصاً على استجلاب القلوب غير المؤمنة إلى التوحيد إن كان التعبير خارج المجموعة المؤمنة ، لأن المسلم مطالب بتقديم صيغة جيدة من المنظومة اللغوية ، مطالب بجمال الشكل الذي يُظهر به ذخيرته الفكرية حيث الجمال والحق ، قال تبارك وتعالى: ﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٨].

وكما أنه حرّم الزنى ، ووضع سداً للذرائع بعدم الاقتراب: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢] ، كذلك نهى النفس عن مجرد الوساوس بالاستيلاء على أموال اليتامى فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٣٤].

والألفاظ التهذيبية في القرآن الكريم زاد وفير لا يستغني عنه الدعاة في ملاطفة المدعومين ، لأن حسن المعاملة يؤكد صحة الاعتقاد ، ورفعة الدعوة ، وعن أهل الكهف قال عز وجل: ﴿ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١٩] ، إنه يتطلف ما دام غريباً وفي هذا درس بليغ في نطاق الدعوة.

بل إن هذا الأمر يتضح جلياً في مخاطبة الكفرة ، لأن السلوك الخشن يزيد في النفور ، فقد نصح الله عز وجل موسى عليه السلام وأخاه هارون بالقول اللين لدى مقابلة فرعون رمز الكفر والطغيان: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

فاللين ههنا يمثل حركة بطيئة في نطق العبارات ، وفيه من الإيغال الحسي ما يحقق الغاية المنشودة لربط القول المسموع باللين اللمسي ، وفيه من التهذيب ما يدل على سمو أخلاق الدعاة الواثقين بدعوتهم.

ومن هذا قوله عز وجل في تعليم المؤمنين آداب الزيادة: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨] ، لقد اختصر البيان القرآني كلّ ما يمكن أن يحدث لدى عدم الاستئذان من قبائح ومنكرات بكلمة «أزكى».

ومن اشتقاقات هذه المادة «الزكاة» التي تطهر النفوس وتحدّ من جبروتها ، وكذلك تشي كلمة «أزكى» بالزيادة والنماء ، وكأنما تصبح النفوس كاملة فيصبح الاستئذان طبع الكُمَّل ، والكمال مُريح ، أما عكس التزكية وهو النقص فمنفّر مقزز ، وكأن الذي يخطىء هذا الخطأ يفقد شيئاً من كيانه وجسده فيغدو منفراً ، هذا من إيجاءات الكلمة وفضاءاتها.

وقد عني المعاصرون بجمالية التهذيب وفق منهج يختلف عن مختلف القدامى ، إذ لا نجد عناية بجلاء المصطلح البلاغي في سياق تأملهم الفني ، بل هم يعمقون الإحساس في تملّي الجمال القرآني.

ويمكن أن نورد هنا نماذج مما ذكره المعاصرون ، ومن هؤلاء الدكتور محمد عبد الله دراز الذي تأمل بعض آيات سورة البقرة ، وصار يفسرها وفق منهج أدبي رفيع ، وكانت الآيات الكريمة من سورة البقرة تتحدث عن بني إسرائيل ، فتُذكر النعمة ، ثم تذكر سفاهتهم عن موسى عليه السلام ، وعبادتهم العجل.

يقول الدكتور دراز: «انظر إليه بعد أن سجَّل على بني إسرائيل أفحشَ الفحش ، وهو وَضعُهم البقر الذي هو مَثَل في البلادة مَوضعَ المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبّيهم على أوامر الله ، فتراه لا يزيد على أن يقول في الأولى: إن هذا ظلم «في الثانية» ﴿بِئْسَمَا﴾ [البقرة: ٩٠] ، أذلك كل ما قابل به هذه الشناعات ، نعم إنهما كلمتان

وافيتان بمقدار الجريمة لو فُهمتا»[1].

ويمكن أن نضيف من هذه الكلمات التهذيبية على شاهده في الآيات نفسها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله: ﴿عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البقرة: ٥٢]، مما يدل على لطف الخطاب ورفعة مستواه، ويدل على رحمة الربوبية مقابل الأفعال الرذيلة المتوالية.

وقد حاولت الدكتورة عائشة عبد الرحمن في كتابيها «التفسير البياني» و«الإعجاز البياني للقرآن» أن تثبت أن حصول الفواصل القرآنية على الشكل الموجود لم يكن مراعاة موسيقية فحسب كما توهم بعض القدامى مثل الفرّاء، بل هناك موافقة للمعنى المطلب قبل حلاوة النغة، وتقف الباحثة عند الآية الكريمة: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] مستلهمة التهذيب والملاطفة في صيغة الفاصلة.

تقول: «ويبقى القول بأن الحذف ـ في فعل قلى ـ لدلالة ما قبله من المحذوف، وتقتضيه حساسية معنوية بالغة الدقة في اللطف والإيناس، في تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس: ما قلاك، لما في القِلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض، أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، ولعل الحس اللغوي فيه يُؤذن بالفراق على كره مع رجاء العودة»[2].

فالدكتورة عائشة ترى أن «قلى» لم تنزل هكذا مراعاة للفواصل الأخرى، ضحى، سجى، الأولىٰ، فتحذف كاف الخطاب، والحق أنها قد توصلت إلى كشف ميزات فنية متنوعة نتيجة محاولتها الأدبية في مسألة تمكن الفاصلة من المعنى، بيد أنها لم تتحدث إلا عن بعض السور

(١) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص/ ١٢١.
(٢) التفسير البياني، د. عائشة عبد الرحمن: ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

القصار ، وهي تنطلق في المَعين العربي ، أي إن معيارها لغوي واضح ، ولولا جزئية فكرتنا حول التهذيب هنا لوجدنا عندها مادة وفيرة.

وقد قدّم أحمد موسى سالم كما أسلفنا دراسة فريدة لشخصيات القصة القرآنية ، فحلّل الشخصيات ، وقسَّمها إلى خيّرة وشريرة ، ورجال ونساء ، وشخصيات أصيلة وثانوية ، ورأى أن من دواعي الأدب أن يسكت القرآن الكريم عن ذكر أسماء الطغاة.

يقول: كيف يكون لهؤلاء الأشرار الذين ليسوا في هذه الحياة إلا الظل المنحسر ، والوهم الزائل ، خلود بأسمائهم في كتاب الله ، لم نعرف اسم فرعون موسى الذي لم يحمل أكثر من لقب طغيانه ، وهكذا لم نعرف اسم الملك الذي رأى في مصر ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٣] ، في قصة يوسف ، كما لم نعرف اسم ذلك الملك الذي كان ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] في قصة موسى وصاحبه»[١].

ولم يقتصر هذا الأدب على القصة في القرآن الكريم ، فقد ذكر أبو لهب بلقبه واسمه عبد العزّى ، وهو طاغية ، وكانت سورة المسد التي ذكر فيها أبو لهب إثباتاً لاستمراره في الكفر ، فذكره لأجل تخليد الإعجاز ، ولقبه على كل حال يذكر بالنار الأخروية التي تنتظره يوم القيامة.

والقرآن الكريم يتجاوز جزئيات لا فائدة من سرد تفصيلاتها في القصة التي كان منهجها تربوياً في كتابنا الأعظم ، فقد كفّ عن ذكر أسماء الصالحين أيضاً ، فلا نقرأ اسم صاحب موسى عليه السلام ، ولا اسم من دافع عنه كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠].

ويبدو أن الأمر أعلق بالجانب الفني السَّرْدي منه بالجانب الخلقي ،

(١) قصص القرآن ، أحمد موسى سالم ، ص/٢١٨ ـ ٢١٩.

فالقصد من القصة القرآنية الموعظة والاعتبار والاقتداء بالنماذج ، وعلى المؤمن أن يقتفي أثر هذه النماذج الخيرة لتكون له بمنزلة مرشد في الحياة ، ففرعون نموذج الشر والطغيان ، وكل شرير فرعون زمانه ، وكل مؤمن هو يوسف عليه السلام في عفته ، وأيوب عليه السلام في صبره ، وسليمان عليه السلام في حكمته .

ويمكن أن نقع على الأثر السيء لذكر الأسماء ، كما هي الحال في الأساطير اليونانية الواردة في الإلياذة مثلاً لهوميروس (قرن/ ٩ ق . م) فهناك حشد من الأسماء والأنساب إضافة إلى حشد من الحوادث تمثّل حشواً فارغاً ، فالسكوت عن الأسماء في القصة القرآنية يعطينا نموذجاً أدبياً رائعاً ، إذ يتجنب السرد ما يدعى بالكلمة الفراغ التي يُستغنى عنها ، ويعطي عالمية وبعداً عاماً لتأثير الشخصية .

وأخيراً نقول: لقد نزل القرآن الكريم لينهض بالإنسان إلى أسمى المراتب ، فليس من الغريب أن يشارك الأسلوب في إبراز هذه الفكرة ، فجاء الخطاب الإلهي سامياً مترفعاً عن الإسفاف ، يدعو إلى التهذيب ، ويتسم بالاحتشام والرفعة ، وقد تبين لنا من المفردات التي مررنا بها ، أن البيان الإلهي يدل على خبرة الصانع بما صَنَع ، أي اطلاع الخالق على طبيعة النفس البشرية ، ومواءمتها في الخطاب عند الكلام على ما يتصل بالمرأة وغيرها من جوانب الحياة ، وأن لهذا النهج دلائله الدينية والاجتماعية اللازمة .

ويظل القرآن الكريم مَعيناً لا ينضب لمن يرهف الحس ، ويتسلّح بالذوق الرفيع والتدبر العميق ، ليقدم مفردات أخرى وافقت السياق ، وجاءت لطيفة ، فجمعت بين الحق والجمال ، وأضافت إليهما الخير لدى فاعلية هذا النهج في الدنيا والآخرة ، وعلى مستوى الفرد والجماعة .

* * *

رسوخ الفواصل

أ ـ الفاصلة شكلاً ومضموناً :

الفاصلة في اللغة هي ما يفصل بين شيئين ، كما أنها إحدى علامات الترقيم في الكتابة ، إذ توضع هذه العلامة بين الجمل التي يتركب منها كلام تام الفائدة، كما توضع بين الكلمات المفردة المتصلة بكلمات أخرى تجعلها شبيهة بالجملة في طولها(١) ، فهذا يعني أن الفاصلة تمنح المتلقي وقفة نَفَسية ونَفْسية ، وتساعد على تبيان أقسام الكلام ليترتب في الذهن .

أما الفاصلة القرآنية وفق الاصطلاح ، فهي كلمة تختم بها الآية ، وهي من حيث الشكل الظاهري كقافية الشعر وقرينة السجع ، هذه الفاصلة تقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام به ، وهي الطريقة التي يباين القرآن الكريم بها سائر الكلام من شعر ونثر .

وتسمى نهايات الآيات فواصل ، لأنه ينفصل عندها الكلامان ، تفصل بينها وبين ما بعدها ، ولم يطلق عليها العلماء اسم الأسجاع تحرّجاً من الطابع البشري للسجع سائغه وذميمه ، ولأن أصل السجع من ترديد الطير للأصوات ، وهذا لا يليق بالقرآن الكريم وسموه الإلهي .

أما مناسبة كلمة فواصل ، فلقوله عز وجل : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

---

(١) انظر : المعجم الوسيط : ٢/٦٩٨ وراجع قطوف من العربية ، د. أحمد سليم الحمصي ، ص/ ٢٦٠ .

[فصلت: ٣] ، بل إن أواخر القرآن كما في ترتيب المصحف يدعى بالمفصَّل لكثرة الفواصل فيه.

وكما أن القافية الشعرية تحدد الدفقة الشعورية عند المبدع ، وتعد الحد الذي يقف عنده النفس الشعري تأهباً لنفس آخر ، فإن الفاصلة القرآنية مخزون من المعاني ليتأمل القارىء ما تشتمل عليه من معان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر مفردات الآية ، كما تمثل الفاصلة نهاية التوتر النفسي الذي يسيطر على القارىء من جراء المعاني الإلهية.

فالفاصلة في القرآن الكريم كلمة تختم بها الآية ، وغالباً ما تتضمن روي الواو والنون أو الياء والنون ، وذلك لأهمية التطريب واستجلاب القلوب إلى روعة شكله ومضامينه الشريفة ، خصوصاً في العهد المكي الذي برزت فيه الفواصل المتماثلة والمتقاربة بروزاً يلفت نظر السامعين من مؤمنين وكفرة ، ففاصلة الآية الكريمة: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٥] هي كلمة «ساهون» لأنها تفصل بين آيتين ، وهي مرادنا في هذه الفقرة.

وليس من الواضح المقبول ما يذهب إليه الدكتور عبد الفتاح لاشين: «والباحث في فواصل القرآن الكريم يجد أنها تكون في مقامات مختلفة ، فمنها ما يُساق لإقناع المشركين بحقيقة البعث والنشور ، ومنها ما يكون القصد منه تذكيرهم بنعم الله ، وانغمارهم في خيراته ، ومنها ما يكون في مخاطبة المنافقين من المشركين واليهود ومحاجّتهم ، وفضح حالهم ، ومنها ما يكون في خلاف هذا وذاك»[١].

فهذا الكلام يشكّل تعتيماً على مصطلح الفاصلة بعد أن بيّنه القدامى ، إذ يمزج بين المفرد والمتعدد ، فلا شك أن المقصود بالفاصلة في كلام

---

(١) الفاصلة القرآنية ، د. عبد الفتاح لاشين ، ص/ ٤٧ ـ ٤٨.

الدكتور لاشين الآيات كلها ، وليس الكلمات الأخيرة ، إذ لا يخاطَب المشركون ولا غيرهم بكلمات مفردة ، وثمة فواصل تختم آيات خاصة بالمؤمنين لم تذكر هنا.

ويتكرر القالب الصوتي ترديداً ونغماً ، من غير أن يؤدي هذا إلى رتابة في الإيقاع مملة ، فثمة تنويع تبعاً للمضمون ، وحفظاً على انتباه القارىء ، «فالقرآن الكريم حين يلجأ إلى كسر هذه الرتابة يثري التعبير بأنغام موسيقية متنوعة ، تتحدّر فيها موجات النغم ، وتتنوع أصداؤه ، وتتصاعد درجاته ، باستعمال وسيلتين: ١ ـ المراوحة: آية طويلة ، فقصيرة ، فطويلة ، وهكذا المرواحة بين القرائن في الكم الموسيقي.
٢ ـ التصاعد النغمي: البدء بالفواصل القصيرة وإتباعها بفواصل أطول فأطول»[1].

ولن نناقش هنا مصطلح الفاصلة الذي عني به الآية كلها ، بل سنفرغ للاستشهاد للمراوحة التي تعبر عن تنشيط الذهن والقلب بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٦ ـ ٩].

ونذكر الشاهد على التصاعد النغمي الذي يعني التغلغل في حنايا النفس شيئاً فشيئاً لتملكها وتملكيها المعاني الشريفة ، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣١ ـ ٣٨].

ولكن الفاصلة القرآنية لا تقتصر على الجانب الموسيقي الممتع ، فهي

---

(١) لغة القرآن الكريم في جزء عم ، أحمد محمود نحلة ، ص/ ٣٦٦.

تقوم بمهمة الإحكام الفكري ، فتُربط بالمعنى الكلي الذي يسبقها في الآية ، وذلك إضافة إلى ترنيمها الموسيقي الراجح ، فهذا الإحكام يتسم بوظيفتين في الشكل والمضمون ، وهو مما يجعلها تترفع عن صفة السجع الآلي.

والكلام على ترجيح المعنى فيها قديم قدم الدراسات الأدبية للقرآن الكريم ، بل إن هذا متعلق بالإعجاز الذي يعني كلاماً يفوق الكلام ، وأنه ليس زينة كلامية خالصة هامشية.

وقد أكد الرماني في تعريفه الأدبي للفاصلة القرآنية سموّها واختلافَها عن الأسجاع ، وقال: «الفواصل حروف متشابكة في المقاطع ، تُوجب حسنَ إفهام المعاني ، والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، ذلك لأن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»[(١)].

وهكذا يرى الرماني أن التعلق الشكلي المتعين في مماثلة الأصوات في الرويّ يدعو إلى التكلف المستهجن ، وهذا مستفاد من أصل تسمية الأسجاع ، فسجع الحمام يعني ترديه الصوت نفسه ، وكذلك السجع في فن النثر.

وكأن الرماني يلمّح إلى وجود فواصل متقاربة الروي في القرآن الكريم ، فبناء الفواصل ينطوي غالباً على المغايرة والتنويع مراعاة للمعاني ، فالتأرجح أو التواصل أو التنويع مسائل ويستدعيها الموقف المصوّر ، وهذه الفضيلة تبعد منهج السجع عن أسلوب القرآن الكريم.

والحقيقة أن النظر إلى الموسيقا الظاهرة المتجلية في الفواصل يعبر عن قلة الثقافة الموسيقية بين أيدي الدارسين ، وكان نفي السجع عن القرآن الكريم هو ما يباين سجع الأدباء ، وتلك نظرة شكلية تحمَّس لها

---

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص/ ٨٩.

كثير من الدارسين مثل أبي بكر الباقلاني ، وهو يقول بنفي السجع جاهداً في ربط المفردة الأخيرة من الآية بسياق المعنى الكلي .

يقول الباقلاني : «ولو كان القرآن سجعاً لكان غيرَ خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيُه من القرآن أجدَرُ بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تُنافي النبوّات ، وليس كذلك الشعر»[١] .

وهو بعد هذا الرد المنطقي الحاوي على لغة كلامية يذكر شواهد من القرآن الكريم مثل تقديم موسى على هارون في موضع ، وهارون على موسى في موضع آخر .

ولكن نقف عند نقطتين في عبارة الباقلاني ، الأولى : أن كلامه يوحي بأن جميع القرآن الكريم متّهم بالسجع ، وليس الأمر كذلك ، وإذا كان السجع يعني مماثلة في الرويّ ، فقد وقع في القليل من القرآن الكريم .

لقد استقلت الفواصل المتماثلة بإحدى عشرة من السور القصار ، وهي : القمر والقدر والعصر والكوثر والأعلى والليل والشمس والمنافقون والفيل والإخلاص والناس ، ويبدو أن الأمر أعلق بالمرحلة المكية ، وكانت له دواعيه الفنية المرتبطة بقضايا فكرية ، ومنها استجلاب القلوب الآيلة إلى الإيمان ، وردع قسوة الكفرة .

أما مقارنة البيان القرآني بالشعر فهي بعيدة عن التحقيق ، لأن قيود القافية والوزن أبعد ما يكون عن نظم القرآن الكريم ، والملحوظ أن تهمة الشعر عارضة ليست مستقرة ، إذ فهم بعدها العربي الفصيح أنه ليس أمام شعر ، وذلك منذ عصر البعثة الشريفة ، ثم إن الدوافع الشعرية والمضامين

---

(١) إعجاز القرآن ، الباقلاني ، ص/٨٦ .

الشعرية ليست في القرآن الكريم، فلا مقارنة في الشكل ولا في المضمون.

والنقطة الثانية: خروج القرآن الكريم عن أساليب العرب، ومع هذا فقد دأب دارسو الإعجاز قديماً يعلّلون الصور الفنية والمجازات بقولهم: كانت العرب تقول كذا، وربما كان هذا زائداً عن حدّه أحياناً، وهو غير لائق بالبيان القرآني، لأن القرآن الكريم ظاهرة انزياح جديد في الفكر والفن.

ولقد توسّم ابن سنان الخفاجي غاية الفصاحة في وجود بعض المماثلة في الكلام، فلا يكون كله مسجوعاً، فالرتابة مكروهة وهي مدعاة للتقوّل والتزيّد، وما أبعد القرآن الكريم عن هذا النهج المعوج الذي يبدو ساذجاً في العهود المتأخرة كما جرى في المقامات.

يقول ابن سنان: «إن القرآن أُنزل بلغة العرب، وعلى عُرفهم وعادتهم، وكان الفصيحُ منهم لا يكون كلامه كلُّه مسجوعاً، لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، ولاسيما فيما يطول من الكلام»(١).

ويستفاد هنا من كلام ابن سنان أن المواضيع القرآنية هي التي تتحكم في وجود السجع أو قرب السجعة أو بعدها، بل تتحكم في طول الآية أو قصرها، وهذا النهج واضح في الأسلوب القرآني، فالسور المدنية تحتاج مضامينها إلى التفصيل مع وجود المدينة الإسلامية وخطاب المؤمنين، فنقرأ آيات طوالاً مثل آية الدين، وآية الحجاب، وآيات التوريث، فالموضوع والمخاطَب يحتاجان إلى دقة تشريعية وتفصيل، وكذلك الأمر في العتاب والأخلاق وأمور الفقه كافة.

وهذا يختلف عن أسلوب السور المكية القصار التي اشتملت

---

(١) سر الفصاحة، ص/ ٢٠٥.

مواضيعها على الترغيب والترهيب ، وقضايا التوحيد ، ووصف الجنة والنار ، وأهوال القيامة ، وكانت نبرة الغضب والزَّجْر في مخاطبة الكفرة لا تتطلب النَّفَس الطويل ، فتأتي الفاصلة بسرعة ، وكأن المشهد قذيفة في إثر قذيفة في وجوه المنكرين.

والأمر واضح أيضاً في سرد القصة ، فهو يختلف في القرآن المكي عن سردها في السور المدنية ، وعلى الرغم من هذا لم تتماثل الفواصل تمام التماثل على الأغلب ، وذلك لأغراض فنية عميقة وذات علاقة بالفكرة.

ومن خلال هؤلاء الأعلام نستنتج تواتر التحرّج من مس القرآن الكريم النص المقدس باصطلاح «السجع» لأصله اللغوي في صوت الحمام ، ولعيوبه الكثيرة المتلاحقة التي لمسوها عند الخطباء المتقعّرين ، وبعض المؤلفين في العصر العباسي كما في الرسائل والمقامات ، ولكن انزاحت هذه الصورة من أذهانهم مع تقدم الزمن ، لذلك نرى السماحة في قبول مصطلح السجع ، على أن سجع القرآن سجع محمود لا تكلف فيه.

وتكمن مشكلة التسمية إذن في رغبتهم في تنزيه القرآن الكريم ، وإلى هذه النتيجة قد توصل الإمام السيوطي ، فقال: «وأظن الذي دعاهم إلى تسمية جُلّ مافي القرآن فواصلَ ولم يسمّوا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبتُهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المرويّ عن الكَهَنة ، وهذا غرض في التسمية قريب»[١].

والمشكلة ليست في الاسم ، بل تتجلى في القول بتبعية الشكل للمضمون ، أو العكس تبعية المضمون للشكل في الفاصلة القرآنية ، وقد ذهب مجموعة من العلماء قديماً إلى أن الجانب الموسيقي قد يلجأ إلى

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢١٣.

نوعية الروي ، منهم النحوي المعروف الفراء في كتابه «معاني القرآن» مؤكداً السجع في القرآن الكريم.

ورأى الفراء أن ليس من العيب الحرصُ على الرنة الموسيقية ، ودعم رأيه بشواهد من السور القصار ، فرأى أن العناية الموسيقية هي التي تتحكم في صيغة الفاصلة ، فلا بأس أن يوجد الحذف ، أو إفراد المثنى ، أو جمع المفرد ، وغيرها من الأحكام اللغوية.

فقد رأى في سورة الضحى أن السجع هو علة الحذف في قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] ، فأصل الكلام عنده: «ما ودّعك ربك وما قلاك» ، يقول: «يريد ما قلاك ، فأُلقيت الكاف ، كما تقول أعطيك وأحسنتُ ، ومعناه أحسنت إليك ، فتكتفي بالكاف من إعادة الأخرى ، ولأن رؤوس الآيات بالياء ، فاجتمع فيه ذلك»(١).

فالسبب الأول هو أن البلاغة الرفيعة على هذا المنوال ، ونرى أنه قياس غير موفَّق ، لعدم النظر إلى خصوصية النبوة كما أسلفنا في مكان سابق من قول الدكتورة عائشة عبد الرحمن التي التمست ظلال التهذيب في حذف الكاف ، ولم تحتكم إلى عادة الاستعمال اللغوي بإزاء هذه الفاصلة ، وأما السبب الثاني عنده فهو مراعاة رويّ الفواصل الأخرى في السورة: الضحى ، سجى ، آوى ، أغنى ، فهو لا يكتفي بناحية الشكل في هذه الآية وغيرها.

ويقول في الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر: ٤] ، وقال: «وقد قرأ القرّاء «يسري» بإثبات الياء و«يسر» بحذفها ، وحذفها أحبّ إليّ لمشاكلتها رؤوس الآيات ، ولأن العرب قد تحذف الياء ، وتكتفي بكسر ما قبلها منها»(٢).

---

(١) معاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٧١.
(٢) معاني القرآن: ٣/ ٢٦٠.

ومن شواهده على أن المضمون مسخّر لأجل الشكل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، يقول: «يراد به فأغناك وآواك، فجرى على طرح الكاف، لمشاكلة رؤوس الآيات، ولأن المعنى معروف»[1].

وهو لا يوضح لنا تعاضد الشكل والمضمون، كما أنه لا يشير إلى جمال هذا التنغيم الذي هو علة الحذف، ولا يعطيه حقه من التبيان والتعليل، وكأنه يريد أن يرجّح العلة الشكلية فحسب، وهذا أمر عظيم خطير يوحي بأن ثَمةَ صيغة كانت مقدَّمة على ما وُجد.

وللحذف في رأينا دلائل معنوية، إذ ليس يقتصر الأمر على الرنة الموسيقية، قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]، وقال على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]، فللحذف دلائل تتصل بالموقف، إذ حذفت الياء من العباد، للدلالة على سرعة هؤلاء البررة إلى العبادة وسرعة الثواب، في حين حذفت الياء من التنادي، للدلالة على سرعة هذا المتكلم المؤمن، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار حذف الياء من (قومي)، وفي الفاصلة بُعْدٌ آخر للحذف، وهو الإشارة إلى سرعة التنادي وتحصيل الأمور يوم القيامة.

والوعيد يشتمل بالسبب على العقاب وهو سريع، ولذلك أشير إلى هذه السرعة بحذف ياء المتكلم فقال عز وجل: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]، وقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

فنخلص بعد هذا ومثله كثير في البيان القرآني إلى أن للحذف دلائل

---

(١) معاني القرآن: ٣/ ٢٧٤.

معنوية تضيف إلى جمال رنة الفاصلة الكثيرَ من الأفكار مما يدل على إعجاز النظم في تماسك البيان القرآني من خارجه ومن داخله.

ولم يكن الفراء وحده آخذاً بهذا الرأي، وجاهداً في الدفاع عن سبب الشكل في الحذف في مثل هذه الكلمات، فهناك النيسابوري والفخر الرازي (ـ٦٠٦ هـ)[1]، وثمة إشارات عند العكبري (ـ٦١٦ هـ) صاحب «إملاء مامن به الرحمن» واللغوي ابن سيده الأندلسي (ـ٤٥٨ هـ) صاحب معجم المعاني «المحكم».

قال العكبري: «وقد تلجىء رعاية الفاصلة إلى حذف ما لا يحذف ليس إلا لأداء غرض فني، كالذي تلقاه في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧] حذف معمول «أخفى» والتقدير ـ والله أعلم بمراده ـ وأخفى السر عن الخلق عن تقديره أخفى فعلاً، وعلى تقديره اسماً، فالمحذوف الجار والمجرور، أي: وأخفى منه»[2].

وقال ابن سيده في المحكم عند الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]. «أي أعضاداً، وإنما أُفْرِد، ليعدِّل رؤوس الآيات بالأفراد»[3].

ويبدو أن السبب في الاستهزاء بقوة هؤلاء المضلين الذي مهما كثروا فهم كالفرد الواحد، لا يساوون شيئاً، مع أن الكلمة تدل على اسم جنس، فهي كل عضد مهما تعدد.

وثمة جهد لابن الصائغ (ـ ٧٧٦ هـ) الأديب الفقيه المصري الذي وضع كتاب «إحكام الراي في أحكام الآي»، ومن هذه الأحكام صرف

---

(١) انظر: الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، ص/ ٢٤٩.
(٢) إملاء ما من به الرحمن، العكبري: ٢/ ٦٢، وراجع د. السامرائي، ص/ ١٣٥.
(٣) المحكم: ١/ ٢٤١.

ما لا ينصرف ، وحذف المفعول ، وغير هذا ، مما يعلّل الجانب الموسيقي ، وهذا الكتاب مفقود.

يقول الإمام السيوطي: «ألف الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي كتاباً سمّاه «إحكام الراي في أحكام الآي» قال فيه: اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول»[1].

ورأى الأستاذ أحمدحسن الزيات رحمه الله أن «وجود الازدواج والسجع في القرآن الكريم في حالة تجوّز لبعض الصيغ والألفاظ ، ما يقطع بلزومه في البيان العربي ، فأعجاز النخل مرة «خاوية» ومرة «منقعر»[2].

ومن الحيف هذه النظرة السطحية في كتاب للبلاغة لا يتعمق صاحبه بلاغة القرآن الكريم ، ومن غير المستساغ أن يكتب هذا في مستهل القرن العشرين ، وقد مضت قرون على نظرة الفراء الذي لازم بين الموسيقا والاستعمال اللغوي في تبيان سبب الفاصلة.

والناظر في كتب التفسير وإعجاز القرآن الكريم يطلع على ما جهد فيه العلماء لدى تأكيد تمكّن الفاصلة القرآنية ، واستقلال كل صيغة بمعنى ، ويعدّ ما ذكره هؤلاء الأساطين دراسات جمة تردّ على ضيق نظرة الفراء بأن تمكن الفاصلة القرآنية بعيد عن مجرد المناسبة اللفظية الموسيقية.

وقد كانت حجة الأستاذ الزيات أن الله عز وجل يقول في سورة القمر: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ٢٠] ، وفي سورة الحاقة يقول: ﴿ كَأَنَّهُمْ

---

(١) الإتقان: ٢/ ٢١٤ ، وانظر للسيوطي أيضاً: معترك الأقران في إعجاز القرآن: ١/ ٣٢ ، ولم أجد تعريفاً بهذا الكتاب في كشف الظنون وذيله ، وكلمة الراي تخفيف للرأي.

(٢) دفاع عن البلاغة ، أحمد حسن الزيات ، ص/ ٤٧.

﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] ، مع أن المقصود في هذا التشبيه واحد وهم قوم عاد.

يقول أبو العباس المبرد كما نقل عن كتابه «المذكر والمؤنث»: «ليس في إحدى الآيتين رعاية للفاصلة ، وما أغنى القرآن عن رعايتها لو أُدخلت على المعنى ، وإنما قصد جنس النخل في التذكير ، وأريدت جماعته في التأنيث ، وبكلتا الصيغتين نطقت العرب ، وعلى كلتيهما بَنَتْ تصرُّفَها في الكلام».

هذه لفتة طيبة من المبرد تبين استعجال الأستاذ الزيات في حكمه ، وهذه اللفتة منصبة في جهة التذكير والتأنيث ، أما اختلاف نعت أعجاز النخل مرة «خاوية» ومرة «منقعر» فإننا نجد أن كلمة «خاوية» معناها ساقطة ، وقد ناسبت هذه الفاصلة ما قبلها من سياق دون كلمة «منقعر» لأن القوم صرعى ألقت بهم الريح العاتية على الأرض ، كما ألقت بأركان بيوت القرية في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، فهنا مع الخواء يقصد مجرد السقوط ، وعندما قصد البيان الإلهي خفتهم أمام قوة الريح ذكر كلمة «منقعر» فلكل فاصلة مرحلة زمنية من هذا العقاب، وفي هذا يتضح التمكن في أقصى غاياته.

ونحس في تفصيلات الزمخشري ودقته دفع تهمة السجع ، وذلك من خلال مفردات نظرية النظم ، وهو يصرِّح بهذا قائلاً: «لا تحس المحافظة على الفواصل لمجردها ، إلا مع بقاء المعنى على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، وبني على ذلك أن التقديم في ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] ، ليس لمجرد الفاصلة ، بل لرعاية الاختصاص»[١].

---

(١) الكشاف: ١/ ١٣٧.

فهو يثبت أن التقديم كان لأهمية ما يوقن به المؤمن في الدرجة الأولى ، ويأتي بعد ذاك ترنيم الواو والنون في الدرجة الثانية .

ولم يملِ المعاصرون في الدرس البياني للقرآن الكريم إلى جانب سيطرة الشكل على المضمون ، بل يسعون بجهد إلى إثبات العكس ، فهم يعترفون برنة الفاصلة القرآنية من حيث هي قرار موحٍ ، وترجيع رائع ، ولكن هذا مرتبط أشدّ الارتباط بالمعنى ، على اختلاف مناهجهم بين دارس أدبي ومفسر ، فكل منهما يتوصل إلى حقائق تناسب ثقافته ، مؤكدين إعجاز تمكن الفاصلة القرآنية .

على سبيل المثال يقول الدكتور أحمد بدوي وهو من الأدباء: «فإنك لتجد أن الفاصلة القرآنية كالقافية الشعرية ، وتزيد الفاصلة على نظيرتها بشِحْنة المعنى ، وَوَفْرة النَّغَم ، والسعة في الحركة»[1].

وقد اختصت الدكتور عائشة عبد الرحمن من العلماء الفراء ، وحاولت جاهدة الردّ على مقولته بعلة السجع في فواصل القرآن الكريم ، وكان اختيارها لتفسير قصار السور مناسباً للرد ، لأن الفراء كان قد فسَّر مقولته بشواهد من السور القصار .

والمعيار الذي تتكىء عليه الدكتورة عائشة هو الاستخدام الصحيح للغة ، إلى جانب الأسلوب الخاص للبيان القرآني من خلال اطّراد صيغ ما ، فلا يوجد عندها إسقاط نفسي موارب يدعونا إلى الأخذ به أو إلى رفضه ، بل اللغة الصحيحة التي تعلّمنا الفروق الدقيقة هي المُحْتكم ، وفي كل وقفة لهانقع على احتراز من توهم المراعاة الشكلية للفواصل القرآنية .

ونقرأ قولها في الآية الكريمة : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق: ٣]: «لم يعدل فيها عن الكريم إلى الأكرم لمجرد رعاية الفاصلة ، ولا قُصد بها المفاضلة

---

(١) من بلاغة القرآن ، ص/ ٨٩ .

بين أكرم وكريم ، على ما تأوّله المفسرون ، فالغاية من صيغة أفْعَل هي أبعد ما يكون من التصوير»(١).

وهذا ما تراه الباحثة أيضاً في اسم الأعلى من أسمائه الحسنى في الآية الكريمة: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ، تقول: «وإنما القصد المضيّ بالعلو إلى نهايته القصوى ، بغير حدود ولا قيود»(٢).

وهي تنظر في الصيغة الصرفية للفاصلة القرآنية ، وتبحث عن نظائر هذه الصيغة محافظة على أسلوبها الشمولي الاستقرائي ، ففي الآية الكريمة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٧] ، تقول: «واستعمال العسرى كاستعمال اليسرى ليس ملحوظاً فيه المصدرية كالعُسْر واليُسْر ، وإنما الملحوظ فيها بصيغة (فعلى) أقصى اليسر ، وأشدّ العسر ، أو هما اليسر الذي لا يسر مثله ، والعُسر الذي ما بعده عسر ، ونظيرهما في القرآن الكريم من غير المادة: «البطشة الكبرى» و«النار الكبرى»(٣).

فقرين هذا المطلوب من حجم المعنى يتجلى في قوله عز وجل: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٢] ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الدخان: ١٦].

والجدير بالذكر أن صيغة الكبرى لم ترد إلا مسندة إلى آيات الله ، وفي وصف القيامة في القرآن الكريم ، لما في هذه الصيغة من طاقة غير محدودة ، وهذا يحقق غاية الفاعلية ، ليظل تفكير المتلقي يحول حول مدى قدرة الله المطلقة.

وفي تفسيرها سورة الهُمزة تذكّر بالاستعمال اللغوي الصحيح الذي

---

(١) التفسير البياني: ٢/ ١١٠.
(٢) الإعجاز البياني للقرآن: ص/ ٢٥٣.
(٣) التفسير البياني ، د. عائشة عبد الرحمن: ٢/ ١١١.

تعدّه سلاحاً في رفض القول بالسجع ، هذه الصحة تتبدّى في مراعاة دقة الفروق ، كما في قوله عز وجل: ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهُمَزة: ٦ ـ ٧].

وهي لا ترى في الأفئدة معنًى عضوياً ، فتجرِّد وفق المنهج اللغوي الصحيح هذه المفردة من الملامح الحسية ، وتعطيها بُعْدَها الروحاني الذهني ، إذ تقول: «إذن يكون إيثار الأفئدة هنا لا لنسق الفاصلة فحسب ، ولكنه لتخليص الأفئدة من حسّ العضوية التي تدخل على دلالة لفظ القلوب فيما أَلِفَ العرب من لغتهم ، ولا نزال نستعمل القلب بمعناها العضوي ، ولا نستعمل الفؤاد بهذا المعنى قطّ»[1].

ولكن قلّما تسهب الدكتور عائشة في بسط الجوانب النفسية المتعلقة بتصوير الكلمة ، إذ تكتفي بذكر التمكن اللغوي ، إلا أن أسلوبها يوحي بمجاوزة البعد اللغوي ، لأجل تبيين المقدرة التصويرية من خلال الفروق اللغوية ، فمثل منهجها يعد تمهيداً ومستنداً قوياً لتطلع جمالي.

وعلى سبيل المثال لا تعلّق الباحثة على أهمية الأفئدة في هذا السياق دون كلمة القلوب ، فلا يتضح عندها أن هذه النار عذاب شديد ينال النفس ، فضلاً عن نيله الجسد ، أي أنها تصل مواطن التكليف ، واختراقها المعالم الذهنية ما يثير الخيال.

وبعد هذا الطواف بجهود الدارسين ، نؤكد أنهم لم ينكروا مراعاة الفواصل القرآنية للجانب الموسيقي تماماً ، خصوصاً إذا أمعنا النظر في سياق كلامهم ، فنجد عبارة «لمجرد مراعاة الفواصل» ، مطردة ، فهم على يقين بانسجام الشكل والمضمون ، إلا أنهم يقدِّمون المضمون على الشكل ، وهذا أمر محتم ، خصوصاً في كتاب ديني معجز.

---

(١) التفسير البياني: ٢/ ١٨١.

ب ـ مناسبتها لما يسبقها:

ينصب اهتمامنا هنا حول العلائق الفكرية التي تربط الفاصلة القرآنية بما يسبقها من كلام، فتغدو الآية أمام المتدبر نسيجاً كاملاً مترابطاً، وهذا ما يمكن أن يسمى عند البلاغيين بمراعاة النظير، أي إشباع الأفكار، بوضع مفردة تكون تتويجاً لما يسبقها من كلام، حتى تؤدي المعنى المراد الوارد في سياق الآية.

ولاشك أن العلماء قديماً قد أبلوا بلاء حسناً في هذا المضمار من خلال دفعهم تهمة السجع، وعنايتهم بالإعجاز، وترجيح المعنى على النغمة الموسيقية.

وثمة كتاب في هذا المضمار للخطيب الإسكافي ينسب إليه خطأ، وهو في الأصل للعلامة الراغب الأصفهاني، هذا ما تحقق منه أستاذنا فضيلة الدكتور نور الدين عتر باطلاعه على نسخة في تركيا، هذا الكتاب بعنوان «درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات» وقد سبق ذكره.

وما يعنينا أن هذا الكتاب قدم جهداً كبيراً في المتشابه اللفظي في مثل قوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١١ ـ ١٣] وذرأ هنا خلق.

إننا نجد في تذييل الآية الأولى كلمة الفاصلة «يتفكّرون»، وفي تذييل الآية الثانية كلمة الفاصلة «يعقلون»، وفي تذييل الآية الثالثة «يذّكّرون»، وليس الأمر للتنويع رغم أن هذه الكلمات من حقل دلالي واحد، ولكن ثمة اعتبارات جزئية رُوعيت في الاختبار.

وفي هذا الصدد يقول الخطيب الإسكافي: «إن التفكير إعمال النظر

لتطَلُّب فائدة ، وهذه المخلوقات التي تنجم في الأرض إذا فكَّر فيها علم أن معظمها ليس إلا للأكل . . فهذا موضع تفكُّر بَعَث الناس عليه ، ليُفضي بهم إلى المطلوب منهم ، وأما تعقيب ذكر الليل والنهار ، وما سخّر في الهواء من الأنواء بقوله «لقوم يعقلون» فلأن متدبّر ذلك أعلى رتبة من متدبّر ما تقدّم ، إذ كانت المنافع المُجْملة فيها أخفى وأغمض . . وأما الآية «لقوم يذّكّرون» ، فلأنه لما نبّه في الأوّليَيْن على إثبات الصانع ، نبّه في الثالثة على أنه لا شَبَه له مما صنع»(١) .

وهكذا دلّ على تماسك كلمات القرآن الكريم من خلال التشابه اللفظي ، فثمة مغايرة جزئية تحقق طبيعة الموقف ، وهكذا فالفاصلة رابطة للآية قبلها ، بل دلّ هذا الكتاب على ارتباط الفاصلة الأخيرة «يذكّرون» بقضية تنزيه الخالق كما ورد في أول السورة : ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ١] .

ونظير هذا الآية الكريمة : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٧] والآية الكريمة التالية : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٨] ، والفاصلتان من حقل دلالي واحد لصلتهما بالعمليات الذهنية .

ولكن دقة النظر عند الزمخشري تجعله يبيِّن مناسبة كل كلمة لسياقها من باب متابعة جزئيات النظم ، فهو يقول : «فإن قلتَ : لم قيل : «يعلمون» مع ذكر النجوم ، و«يفقهون» مع ذكر إنشاء بني آدم؟ قلتُ : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة ، وتصريفُهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدقّ صَنْعةً وتدبيراً ، فكان ذكر الفِقه الذي هو استعمالُ فِطنة وتدقيقُ نظر مطابقاً له»(٢) .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ، ص/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٢) الكشاف : ٢/ ٣٩ ، وراجع إرشاد العقل السليم : ٣/ ١٦٦ .

ومن هذا المنطلق جاءت تسمية تفاصيل التشريع الإسلامي فقهاً ، لأنه علم يعتمد الفهم العميق لدقائق الأمور ، مما يحتاج إلى دقة وفهم واسع ، كذلك فقه اللغة .

والملحوظ هنا أن كُلاًّ من الخطيب الإسكافي والزمخشري لم يتعرض للجانب الموسيقي ، فكلا الفاصلتين على الواو النون ، وهو الأكثر في القرآن الكريم

ورجال البلاغة يضعون أمثال هذه الشواهد تحت عناوين متعددة ، هي التوشيح أي دلالة أول الكلام على آخره ، والتصدير الذي هو في الشعر اختلاف القافية مع سائر كلمات البيت ، والإيغال الذي هو تتميم المعنى ، أما الزمخشري فقد سمّى هذه الجمالية بالتخيّر .

ويمكن أن نقف عند قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٤] ، فالمتدبر يجد علاقة وثيقة بين معنى الفاصلة «يعقلون» وما سبق من كلام .

يقول ابن أبي الإصبع : «ومن هذا النوع في الكتاب العزيز قوله تعالى في أول الجاثية : ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٣ ـ ٥] .

ويقول : «فالبلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى : المؤمنين ، لأنه سبحانه ذكر العالَم بجملته ، حيث قال : السموات والأرض ، ومعرفة مافي العالم من الآيات الدالة على أن المخترع له عليم حكيم ، وإن دلّ على وجود صانع مختار فدلالتها على صفاته ، لتقدُّم الموصوف وجوداً واعتقاداً على الصفات ، وكذلك قوله في الآية الثانية : لقوم يوقنون ، فإن نفس الإنسان وتدبّر خلق الحيوان ، أقرب إليه من الأول ، وتفكُّره في

ذلك مما يزيده يقيناً في معتقده الأول ، وكذلك معرفة جزئيات العالم من اختلاف الليل والنهار ، وإنزال الرزق من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، تقتضي رجاحة العقل ورصانته ، ليعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم ، التي هي أحسن منه ، وعوارضُ عنه ، ولا يجوز أن يكون بعضها صنع بعضاً بعد قيام البرهان على أن للعالم الكلي صانعاً مختاراً ، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة «لقوم يعقلون» ، وإن احتيج للعقل في الجميع ، إلا أن ذكره ههنا أمسّ بالمعنى من الأول ، إذ بعض من يعتقد صانعاً للعالم ربما قال: إن بعض هذه الآثار يصنع بعضاً ، فلابد إذاً من التدبر بدقيق الفكر وراجح العقل»(1).

ويتضح هذا الاختيار الدقيق من خلال شرح هذا العَلّامة الذي استخدم لغة كلامية ترسخ المنحى البلاغي ، كما يتضح الاختيار الدقيق لكلمة الفاصلة في قوله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩ ـ ١٠] حيث لا يمكن التبديل بينهما.

ويقول ابن أبي الإصبع: «ولا يجوز التبديل بينهما ، إذ لا يجوز النهي عن انتهار اليتيم لمكان تأديبه ، وإنما يُنهى على قهره وغَلَبته ، كما لا يجوز أن ينهر السائل إذا حرم ، وليردّ رداً جميلاً»(2).

وقد امتاز الزمخشري والخطيب الاسكافي أو الراغب الأصفهاني بصفاء الذهن والترفع عن التعلق بالمصطلحات والتفريعات كما وجدناها عند ابن أبي الإصبع ، لأنه كان يردد الشواهد نفسها تحت عنوان آخر ، ولكنه مع هذا كان مدركاً لجمالية تمكن الفاصلة القرآنية معملاً العقل والنظر الدقيق في كشف العلاقة بين الفاصلة وسياقها.

---

(1) تحرير التحبير ، ص/٥٢٨ ـ ٥٢٩.

(2) تحرير التحبير ، ص/٥٢٩.

فهذه الجمالية بعنوان التمكين والتخير والتصدير والتوشيح ، فهو يستشهد لفن التصدير أي التلميح بالكلام إلى الفاصلة ببعض الآيات ، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

ويعلق على هذا التذييل قائلاً: «إن هذه الآية الكريمة لما تقدم فيها ذكر العبادة والتصرف في الأموال ، كان ذلك تمهيداً تاماً لذكر الحليم والرشد ، لأن الحلم: العقل الذي يصحّ به التكليف ، والرُّشد: حسن التصرف في الأموال»(١).

وهو يستعين بما يعرف في الشرع عن التكليف ولزومه لكمال العقل ، وحقّ التصرف في الأموال مما يتطلب كمال العقل أيضاً ، ويمكن أن يضاف هنا بعد التهكم في الكلمتين اللتين جاءتا في صيغة مؤكدة دالة على تعجرف.

كما يستشهد لفن التوشيح بقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧] ، ويعرّفه قائلاً: «سمّي هذا الباب توشيحاً ، لكون أول الكلام يدل على لفظ آخره ، فيتنزّل المعنى منزلة الوشاح ، ويتنزّل أول الكلام وآخره منزلَة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح»(٢).

ونحن لا نرى هذا الفرق الذي يحدد به على تخصيص مكان للتوشح ، وآخر للتصدير ، وغير هذا ، فكل هذه المصطلحات تعني العلاقة القوية بين الأول والآخر ، وكان يكفي الحديث عن التمكين من

---

(١) تحرير التحبير ، ص/ ٢٢٤.
(٢) تحرير التحبير ، ص/ ٢٢٨.

غير هذه التفريعات ، إلا أن هذه التفريعات لا يخلو مضمونها من نظر ثاقب وتذوق رفيع مبدع ، وتدلّ على عناية العلماء قديماً بجزئيات النظم وتماسكه في القرآن الكريم.

ويمكن أن نستشهد التماسك الذي يحتاج إلى نظرة في باطن التشكيل اللغوي بقوله عز وجل: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ، وقوله في سورة أخرى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

ويقول ابن قيم الجوزية: «إن نزع الشيطان وتصرفاته وساوس وخطرات يُلقيها في القلب ، وهذا مما يتعلق به العلم لا البصر ، ولذلك جاءت الفاصلة: «إنه سميع عليم» في الآية الأولى: و«السميع العليم» في الآية الثانية»[١].

ومن الجدير بالذكر أن جلال الدين السيوطي قد جمع بين قولين متضاربين في شأن الفاصلة القرآنية، وذلك بسبب تعريفه بكل ما ورد من غير ترجيح فهو يتبع خطا ابن أبي الإصبع ، وينقل رأيه قائلاً: «لا تخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء: التمكين والتصدير والتوشح والإيغال»[٢].

ثم ينقل شواهده من غير إضافة مع اختصار التعليق الفني ، وبعد هذا يذكر مفصّلاً ما يحصل من تقديم وتأخير وغير هذا لمراعاة الفاصلة ، وينقل رأي ابن الصائغ سالف الذكر من كتابه. . «إحكام الراي في أحكام الآي» في ترجيح الجانب الموسيقي[٣] ، وكأن الأصل ليس على ما جاءت عليه الفواصل القرآنية ، إنما خولفت الأصول التي يريدها ابن الصائغ

---

(١) بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، ص/١: ١١٠.
(٢) معترك الأقران ، السيوطي: ١/ ٢٣.
(٣) انظر كتابيّ السيوطي: معترك الأقران: ١/ ٣٢ ، والإتقان: ٢/ ٢١٤.

لأجل مراعاة لفظية مما لا يليق بالبيان القرآني.

وعند المفسر أبي السعود العمادي نجد تعدّداً في تبيان جمالية الفاصلة القرآنية ، بيد أنه تعدد لا يدل على تناقض ، فهو يضيف إلى أهمية النظم كما رأيناها عند سلفه الزمخشري تتخذ الأولية ، نجد مراعاة الفواصل موسيقياً.

ومن هذا القبيل ما جاء في تفسيره للآية الكريمة: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] فهو يقول: «والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد، والمحافظة على الفواصل»[١].

أما الباحثون المعاصرون فقلّما يخصصون فصلاً في أسفارهم لجمالية تمكن الفاصلة، واحتوائها لمعناها صنيع الدارسين القدامى ، فذلك نجده منثوراً في صفحات تخصص عادة لجمال اللفظة القرآنية من شتى الجوانب.

ولهذا يلفت الدارس المعاصر نظرنا إلى جمال المفردة القرآنية ، فنجد أن هذا الجمال يشمل فصولاً متعددة من بحثنا ، ولا ريب في أن المفردة القرآنية تتّسم بتعدد جوانب جمالها ، فهناك الصوت الموسيقي ، وهناك الإيجاز ، والتهذيب ، ومناسبة المقام ، والقدرة التصويرية ، والإيحاء ، وإحكام الصورة ، وغير هذا.

وقد خصصت الدكتورة عائشة عبد الرحمن جانباً لتمكن الفاصلة القرآنية ، وكما وجدنا سابقاً ، في هذه الفقرة وكذلك في الفصل الأول ، ولم يبخل سائر الدارسين المعاصرين بعطائهم في إثبات تمكن الفاصلة وجمالها ، وكشف المعالم النفسية والفكرية ، لكنهم ينظرون إليها على أنها مفردة ، ولهذا مرت بنا فواصل كثيرة في فقرات سابقة دلّت على الجمع بين التقليد والإبداع.

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٣/ ١٠٥.

لكن اللافت للنظر في دراسات المعاصرين أن الدكتور عبد الفتاح لاشين وضع كتاباً بعنوان «الفاصلة القرآنية» ، وراح يبيّن أن الآية تخرج عن الأصل لأجل الموسيقا ، فيحدث زيادة حرف ، وتأنيث ما أصله مذكر ، والجمع بين المجرورات ، وحذف همزة أو حروف ، وتأخير ما أصله أن يتقدم ، وإفراد ما أصله أن يجمع ، وجمع ما أصله أن يفرد ، وتثنية ما أصله أن يفرد ، واختلاف الترتيب ، ويعد هذا نكسة نحو الوراء إذا نظرنا إلى جهود القدامى وكثير من المعاصرين في تمكين الفاصلة وترجيح القضايا الفكرية لا الموسيقية كما ذكر الدكتور لاشين(١) .

ونورد هنا ما قاله الدكتور حفني محمد شرف الذي سار على نهج القدامى ، فقد جاء في كتابه الإعجاز البياني: «ومن دقة اختيار ألفاظ القرآن ، والتمييز بين معانيها ما نجده في التفرقة في الاستعمال بين لفظ «يعلمون» و«يشعرون» ، وقد كثر دورانها في القرآن ، فنجد أنه في الأمور التي يُرجع إلى العقل وحده في الفصل فيها يُستعمل كلمة «يعلمون» ، لأنها صاحبة الحق في التعبير عنها ، وأما الأمور التي يكون للحواس تدخُّل في شأنها فيستعمل كلمة «يشعرون»(٢) .

وإذا تلمسنا تصديق هذا الكلام نجده في القرآن الكريم ، إذ ترد كلمة «يشعرون» فيما يتعلق بحاستي السمع والبصر ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٥] ، ولاشك أن التتبع الدقيق والتفسير القويم يوصلنا إلى نتيجة تطابق ما ذكره الدكتور حفني محمد شرف.

وهذه النظرة المشكورة تتكيء على ذكره الدارسون القدامى ، بيد أن الدكتور شرف ينظر إلى القرآن الكريم كله ، وقد ظل الزمخشري على

---

(١) انظر: الفاصلة القرآنية ، ص/ ٢٢ ـ ٣٦.

(٢) الإعجاز البياني بين النظرية والتطبيق ، ص/ ٢٢٤ .

سبيل المثال يقتصر على الآية التي يفسرها ، ولا يصل بنا إلى النظام القرآني الكلي ، وهذا طبع النقد العربي القديم أيضاً ، فهو جزئي ليس له أُطُر عامة ، ومع هذا نقول لا جديد عند المعاصرين إزاء ما بذل القدامى من جهد في هذا الشأن.

ج ـ التوغّل الدلالي:

ثمة فواصل قرآنية تحسبها النظرة السحطية زائدة على سياق المعنى، وأنها أضيفت لأجل النسق الموسيقي ، وقد لفت الباحثون المعاصرون النظر إلى مثل هذه الفواصل ، وما تضيفه في النص وما تقدمه من قيم فكرية ونفسية وتصويرية ، وحجم فاعلية هذه الفواصل في التأثير وزيادة الإقناع.

ولم تكن هذه السمة بعيدة عن تذوق الدارسين القدامى ، فقد سماها ابن أبي الإصبع إيغالاً ، أي ثمة توغُّل في المعنى يعني توغُّلاً في حنايا النفس وترسيخاً في ذلك المتلقي ، فالنفس والفكر والتصوير هي المعايير في هذه الجمالية ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

وقد قال: «فإن قيل: فما معنى «مُدبرين»؟ وقد أغنى عنها قوله: «إذا ولَوا» قلتُ: لا يُعني عنها قوله: «ولّوا» فإن التولّي قد يكون بجانب دون جانب ، وبدليل قولِه تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣] ، أرادَ تَتْميم المعنى بذِكْر تَوَلِّيهم في حَال الخِطَاب ، ليَنْفي عنهم الفَهْمَ الذي يَحْصَلُ من الإشارة ، فإن الأصَمَّ يَفْهَمُ بالإشارة ما يَفْهَمُهُ السَّميع بالعِبارة ، ثم اعْلَم أن التولّي قد يكون بجانب من المتولّي ، فيجوز أن يَلْحَظ بالجانب الذي لم يتولَّ به»[1].

ومنه قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ

---

(١) تحرير التحبير ، ص/ ٢٣٤.

﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣] فإن امتناعهم عن كل هذا المتعدد من التوحيد والعبادات والأخلاق ، تطلب إضافة معنى جديد وهي الامتناع ثم التولي ثم الإعراض ، ولنا أن نقول: إن إعراضهم كان محرِّضاً على التولّي عن كل هذه المطالب من غير تردد.

وكذلك قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣] ، فسجل الإعراض للقوم أنفسهم ليفسر به التولي الدائم.

ومنه أيضاً قوله عز وجل: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١] ، وكأن عنوان هذا الفن يُوحي بأن البيان القرآني يُوغِل في المعنىٰ ، وفي رسم المشاهد حتى يكون التصويرُ واضحاً للعِيان ، ومؤثِّراً بشَكْل أقوى ، والملحوظ في الآية الأخيرة الإيغال بعد تتميم المعنى ، كما يرى البلاغيون ، ولكن يضاف الاحتراز من ذهاب الإيمان والنفاق فذكر دوام الهداية.

والشواهد التي قدَّمها ابنُ أبي الإصبع تميل إلى المعيار اللغوي دائماً ، ولهذا لم يَكُن منه تَخَيّل للإيحاءات النفسية التي تُضيفها الفاصلة المُوْغِلة ، وهذا نَسْتَشِفُّه في تفسير أبي السُّعود الذي سَار على خُطا الزمخشري ، ففي تفسيره للآية: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [الحج: ٢٠] يقول: «والجُلود عُطف على «ما» وتأخيره عنه إما لمراعاة الفواصل ، أو للإشعار بغاية شِدّة الحَرارة ، بإيْهام أنْ تأثيرَها في الباطن أقْدمُ مِنْ تأثيرِها في الظاهر ، مع أن ملابَسَتَها على العَكْسِ»[١].

---

(١) إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٠١.

فهو لا يُسَمِّي هذا الفن ، ولا يذكر شواهِدَ شعريةً شأنَ ابن أبي الإصبع ، وهذه طبيعةُ كتبِ التفسير البياني المُخْتَلفة عن طبيعة كتب الإعجاز والبلاغة ، ولكن يُؤْخَذ عليه هنا تعدّد في الرأي ، فرأيُه بين مراعاة الفواصل ، وأهمية معنى الجلود.

ولاشك أن كلمة الجلود هنا تنمّ عن الإحساس بالنار التي تُصهر ، وهي كذلك توحي بالفروج ، وما يتصل بها من زِنى وقَبائحَ ، وأنَّ الوقوف عليها يَبْعَثُ في رُوع المَرْء رَهْبَةً ، وقد تبيَّن في العلم الحديث أنَّ الجِلْد مُسْتَقِل بمراكز إحْسَاسٍ ، ولا يَتَلَقَّى الإحساسَ من الباطن.

والمعروف في العلم الحديث أيضاً أن إحساسات الألم والحرارة والبرودة أشد ما تكون عند الجلد ، فإذا حقن المرء بإبرة أو غيرها يشعر بذروة الألم عندما تجتاز الإبرة جلده ، ومتى تجاوزت الجلد إلى الأنسجة الداخلية الأخرى يخف الألم ، وهكذا تبين الآية اشتمال العذاب على إيلام الداخل والخارج.

لقد وَرَدت في القرآن فواصلُ يُظَنّ أنها زائدة ، وفائدتها تكمُن في إحكام الصورة الفنية ، وهذا ليس ببعيد عن معنى الإيغال الذي ذكره لنا ابن أبي الإصبع.

وهذه الفاصلة قد تَقَع من جهة الإعراب صفةً للكلمة التي تكون قَبْلَها ، فتُعطيها إيغالاً ، وزيادةَ تأثيرٍ ، ومن هذا قولهُ تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر: ٥٠] ، فإنّ هذه الفاصلة أضافت إلى غباء الحُمُرِ ضَعْفَها ، فهي تهربُ من اللّيْثِ ، وهذا يصوِّر مِقدارَ إنكار الكفار وتهربهم من الرسالة السماوية.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤] فالفاصلة تُوحي باستدامة هذه النار ، والفاعلية تضاف إلى الماهيّة ، وهذه صفات حسية تسهم في تأطير الصورة المرئية وتكمل عناصرها.

ويُمْكن أن نقول هذا في قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢٢] فهاتان الكلمتان تُكملان الصورةَ أمام البصر ولا تَدَعان للنَّقْصِ مكاناً، إضافةً إلى جمال المحافظة على الرَّنَة الموسيقية.

نستنتج مما سَبَق أنّ جمالية تمكّن الفاصلة لم تكُن وليدةَ عصرِنا، فقد أفاض القدامى في بيان مضمون الفاصلة، وحقِّه من الوجود، وبُعْدِها عن التكلّف والقَلَق في مكانها، وردّوا تُهمة السَّجْع، بَيْدَ أنهم لا يَنْفون قَصْدَ القرآن إلى الترنيم بالفواصل، وذلك بتقديم معنى الفاصلة وأهميَّتِه في الآية على المراعاة اللفظية.

وكان لكلّ دارس أسلوبُه في إبراز تمكّن الفاصلة، وقد أثبتنا في الفقرة وَقَفات رائعة لهم، وبيَّنَّا المعْيارَ الذي يَعْتمده كلٌّ منهم، فهناك المعيار اللغوي، ودقّة الاستعمال والفروق، وهناك معيار النَظَر إلى أوَّلِ الآية، ولم تَخْلُ نظراتُهم من تمْحيص وكشف لظلال الفاصلة، وقد وجدوا جمالها يَتَوزَّع بين مناسبتها لما قَبْلَها، وإضاءَتِها للنص بمعنى جديد، وقد تبيّن لنا أن القدامى بذلوا جهداً كبيراً في هذا المضمار، لم يَزِدْ عليه المُحْدَثون كثيراً.

د ـ رأي الدَّانـي:

والجدير بالذكر أن هناك تعريفاً للفاصلة انفردَ به أبو عَمْرٍو الدَّاني (ـ ٤٤٤ هـ)، إذ يَرىٰ أنّ الفاصلة هي كلمة آخر الجُمْلَة، وليس آخرَ الآية، كما هو متعارف عليه، وقد نقل الزركشي رأيَه هذا.

يقول أبو عَمْرو: «أمّا الفاصلة فهي الكلام المُنْفَصل قد يكون رأس آية وغيرَ رأس وكذلك الفواصل يَكُنَّ رؤوسَ آي وغيرَها، وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كلُّ فاصلةٍ رأسَ آية، فالفاصلة تَعُمُّ النَّوْعَيْن، وتجمع الضربين، ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذَكَر سيبويه في تَمْثيل القَوافي

﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ ﴾ [هود: ١٠٥] و﴿ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ ﴾ [الكهف: ٦٤] وهما غيرُ رأسِ آيتين بإجماعٍ ـ مع ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ [الفجر: ٤]، وهو رَأسُ آيةٍ باتِّفاقٍ»[1].

وإذا كانت الفاصلة القرآنية قرينةَ السَّجْعَة والقافية ، فإنّ هذه الفواصل الداخلية تَخْتَلِفُ برَوِيِّها عن الفاصلة في رأس الآية ، ومما يُفادُ مِنْ نظرة أبي عمرو الدّاني أنّ الوقوف على رأسِ الجملة لتحديد الفاصلة يُعَدُّ مظهراً آخَرَ لتمكّن الكلمات من أماكنها.

ومما يُفادُ أيضاً أنّ الوقوفَ الجائز على رأس الجملة لا يُفْقِدُ القارئ شيئاً من الترنيم الذي يكون في فاصلة رأسِ الآية ، ويبْدو مما اقتبسناه أنَّ سيبويه ذكر هذا ، فقَرَنَ «يأتِ» مع «يَسْرِ».

ولم يناقش الزركشي هذا الرأي ، وكأنّه ذَكَره لأجل استيفاء الآراء في تعريف الفاصلة ، ونودّ أن نقف عند قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴾ [هود: ١٠٥] في الحديث عن يوم القيامة ، فإنّ الوقوف على كلمة «يأتِ» لا يخلو من نَغَم ، وكذلك يَعْني الوقوفُ هنا استحضارَ الذِّهْن لتَلَقّي النتيجة حَيْثُ الشّقاءُ والسَّعَادةُ.

وكذلك في قوله عزَّ وجلّ عن موسى عليه الصلاة والسلام وفَتاهُ عندما نَسِيَا الحُوتَ: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴾ [الكهف: ٦٤] فإنَّ الوقوف على كلمة «نَبْغِ» يَعْني استحضارَ تأمُّل النبي الكريم موسى ، وصَمْتَه وفَهْمَه لحِكْمَةِ ربّه ، ومِنْ ثَمَّ يأتي الحديث عنهما ، بَعْدَ كلام النبي عليه السلام.

وقد بينّا في الفصل الأول كيف حَضَّت الأحاديث النبوية الشريفة على

---

(١) البُرهان للزركشي: ١/ ٨٤ ، وانظر الإتقان للسيوطي: ٢/ ٢٠٩.

القِراءة المُتأنّية للقرآن ، وقد ذَكَر السيوطي أن الوقوف على كل كلمة جائِزٌ[(١)].

ويُمْكِن أن نطبّق رأي أبي عَمْرٍو الدّاني في الفاصلة في آية الكرسي ، وهي من الآيات الطوال ، يقول عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ولا يؤده: لا يُثقله ولا يشق عليه وماضيه أدّ أوْداً.

فنحن في هذه الآية بإزاء تِسْعِ فواصِلَ: «القَيّوم ، نَوْمُ ، الأَرْضِ ، بإذْنِهِ ، خَلْفَهُم ، شاءَ ، الأرْضَ ، حِفْظُهُما ، العَظِيمُ» ، فالمدّ الجميل ذو الحَرَكاتِ السّتِّ في كَلِمة القَيّوم ، ويَتْبَعُه جمالُ الوقوف عند «نَوْمٌ» ، مع إطالة الإحساس بالواو قبل التَّرْكيز على الميم ، وكذلك كلمة «الأرض» ، ثم يأتي الوقوف عند «بإِذْنِهِ» ، حيث تُشْبَع كَسْرَةُ الهاءِ ، فتُحْدِثُ في الأُذُن تَطْرِيباً ، وكذلك «خَلْفَهُم» ثم المدّ الجميل يكون في شاءَ ، لِيَنْسَجِمَ مع سكون الميم الشَّفوية ، وكذلك المدّ في «حِفْظُهُما» يَنْسَجِمُ مع الوقوف على الضّاد «الأرضَ» ، ثم يأتي مِسْك الخِتام في المدّ الذي يَسْبِقُ الميمَ «العظيم» ، وهي الفاصلة التي تَعارَف عَلَيْها الدارسون.

ونلتمس من رأي الداني جَمالاً في الشكل بحيثُ أكَّدت لنا التلاوة جمال الوقوف على أواخر الجُمَل: اسميةٍ أو فِعْليةٍ ، وهذا ما يَدْفع شُبْهَة السَّجْع بقُوّة ، لأجْل تنوّع رَوِيّ هذه الفواصل بشكل واضح ، كما يؤكّد مفهومُ الفاصلة في رأس الجملة مناسبةَ كلٍّ كلمة قرآنية للمقام ، هذا من جهة المضمون ، أما الشكل فقد دَلّتْنا نظرة الدّاني على جمال موسيقي في

---

(١) انظر الإتقان: ٢/ ٢٠٩.

تركيب الجمل ومشاركتها للفواصل بالأنغام الداخلية.

هـ ـ تأملات أخرى:

نختم هذه الفقرة بالتبرُّك ببعض الشواهد القرآنية التي نرصُدُ فيها رسوخ الفاصلة الدال على تماسك الآية، فإن هذا يحتاج من الدارس إلى إمعان وإعادة القراءة والنظر في الكلمة وظلالها، أو متابعة ما وراء السطور.

قال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧]، وللمتلقي أن يتساءل عن سبب وجود «الخاسرون» دون لفظة الكفر أو الجحود أو الاعتداء، والسبب كما يتراءى لنا أن النقض يذكر بعملية مهيئة تجارية وهي الغزل، كما أن الإفساد يتعلق بالربح والخسارة، لصلته الوشيجة بالممتلكات وشيء من هذا القطيعةُ، فجاء مناسباً في السياق أن يوصف هؤلاء بالخسارة.

وقال عز وجل في مخاطبة بني إسرائيل: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، فاختار البيان القرآني لفظة العقل، لأن هذه الازدواجية في شخصية الإسرائيلي مفسرة وناشئة من تعطيل العقل، إذ من المنطق أن تكون الذات أول المدعوين، فإلزام الحجة وبرهان التلاوة من مقتضيات العقل.

ويوصف العذاب بأوصاف مختلفة تبعاً لسياق الآية إذا جاء العذاب في الفاصلة، فنقرأ ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣]، فالزينة بهجة للباصرة والبصيرة، تناط بها أفراح وملذات شتى، لذلك وصف العذاب بعكس اللذة وهو الألم دون غيره من الأوصاف كالعظمة والكِبَر.

ونذكر شواهد أخرى تؤكد تمكّن الفاصلة ومناسبتها لما سبق، فقد جاء في الأنعام ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧] و﴿ قَدْ فَصَّلْنَا

﴿ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، والعلم والفقه من حَقْل دلالي واحد لصلتهما بالعمليات الذهنية.

وجاءت كلمة «يعلمون» بعد ذكر النجوم، وكلمة «يفقهون» بعد ذكر إنشاء بني آدم لأن الأسر يحتاج إلى دقة، وقد أسهب العلماء في جمال تمكن الفاصلة تحت عناوين متعددة، مثل التوشيح أي دلالة أول الكلام على آخره، والتصدير أي ائتلاف الفاصلة مع سائر الآية، والإيغال أي تتميم المعنى، وكما أطلق الزمخشري مصطلح التخيّر.

وقال عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، فطول الحياة مطمع للملذات وقصر الحياة مدعاة للألم وانحسار الأماني، وذكرُ الموت يرمز إلى الألم بعد أن رمز طول الحياة إلى اللذة، ولنا أن نقول بأن الكفار المصرّين على الكفر يضمرون لذة الانتصار على المؤمنين، لذلك وصف العذاب بالألم.

ولنا أن نتلمَّس هذا التماسك المعنوي الداخلي بين نسيج الآية وفي قوله عز وجل: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

فالاسترجاع يؤكد لنا وجود الفرح والامتلاك والحب والحمد، وكل هذه القضايا لذائذ حسية ومعنوية، أما المفازة فهي صحراء توحي بالألم أو هي من الفوز وهو لذة نفسية، كل هذا يدعونا إلى التأكد من رسوخ وصف العذاب بالألم دون غيره.

ويوصف العذاب بالعظيم في قوله عز وجل: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] فالعِظم يناسب كبرياء القلوب والتجبّر وذكر حاستي السمع والإبصار، في حين وصف

العذاب بالألم بعد هذه الآية: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠] ، لأن المرض ألم رغم أن هذا مقرون بلذة المخادعة التي يجريها المنافقون.

ولكون الشِّراء يشكِّل سعادة في دفينة المرء ، كان المضاد هو الألم الذي يوصف به العذاب في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٧] ، فشراء الكفر يتحتم معه بيع الإيمان ، فالشراء ذو وظيفتين إسعاد الذات وإيلام الطرف الآخر ، لذلك وصف العقاب بأنه أليم.

ويوصف العذاب بالإهانة فيمتزج فيه الحسي والروحي ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨] ، فالحسبان سواء كان صحيحاً أو خاطئاً هو مظنة بالعزة والفخار ، كما أن الإملاء والإمداد مناط العزة ، والزيادة كذلك لا تبعد عن السياق ، لذلك كان العذاب مهيناً قهراً لهذه النفس المتجبرة والمتورِّمة.

وثمة جاحدون من اليهود يبخلون بفعل ذاتي ، ولكن فئة أخرى تأمر الناس بالبخل ، فكأن لهم على الناس ضربة لازب وفضلاً ومشورة ليكون البخل قانوناً ، كل هذا يعبر عن العنجهية والسيادة ، لذلك وصف عذابهم بالمهين ، قال تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ٣٧].

إذن فتقنين الرذيلة يُقابل بالإهانة ، ويمكن أن نقول إن خَساسة هذه النفوس الآمرة بالرذيلة يناسبها وصف العذاب بالإهانة ، يضاف إلى هذا أن كتمان العلم والمال يدل على كبرياء تُعارَض بالإهانة ، فجاء العذاب المهين لهذه اللذائذ المصحوبة بالتصلف وقسوة القلب ، ويمكن أن يكون حَدّاً من المال الذي هو زيادة في السيادة والتسلُّط.

والعزة من مستلزمات النصر في الحرب ، قال تعالى: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٠٢] ، فوصف العذاب بالإهانة لما سبق من مظاهر عزة كتقسيم الجيش في الصلاة ولزوم الحرس للأسلحة والهجوم العنيف بالميلة الواحدة.

وننظر في قوله عز وجل: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧] ، فقد ذكر الرغبة في الخروج ، ثم أكد استحالة الخروج بحرف جر زائد في «بخارجين» ، فلزم أن يكون العذاب مضاداً للخروج فهو مقيم ، وفي هذه الكلمة تشخيص ، لانتزاع صفة الإقامة من الإنسان ، فكأن العذاب امتلك همَّةً خالصة قَصَدَ بها الإحاطة بهؤلاء المجرمين.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] ، وليس لنا أن نكتفي بتلميح الكتب البلاغية القديمة ، فنقول: عدل البيان القرآني من الفاعلية إلى المفعولية على سبيل المجاز العقلي ، ولكن نقول: إن هذا الحجاب شديد الحجب حتى كان هو نفسه محجوباً ، وهذا أبلغ تعبير عن امتناعهم عن الإيمان.

وفي سورة الإسراء آيتان تشتملان على الزجر عن البخل والإسراف ، ثم عن الإشراك ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] ، ثم قال عز من قائل: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٩] ، فذهاب المال مع الإسراف ناسب أن تقترن الملامة بالانحسار وهو انقطاع المال ، أما الإشراك فقد ناسب عنده أن تقترن الملامة بالطرد من رحمة الله.

* * *

جمالية التكثيف

أ ـ جمالية التكثيف:

لدى النظر في آيات القرآن الكريم وحجومها يتبين للدارس أن الإيجاز مناط السور المكية، وأن الإطناب أو دقة التفصيل مناط السور المدنية، وذلك لأن المرحلة المدنية من النزول القرآني مرحلة تشريع، فتطلب الأمر بسط الأمور الفقهية والتشريعات للمؤمنين، كما هي الحال في سورة البقرة والنساء والنور، خلافاً لمضامين السور المكية، فهي تدور حول قضية التوحيد، وأمور الغيب، والترغيب في وصف الجنة، والترهيب في وصف النار.

ويمكن أن نضيف أن قِصَر الآيات المكية وقِصَر السور المكية مواءمةٌ للطبع البشري، تدل على حكمة عالية، فذلك أن المسلمين كانوا في حال قلق وخوف، وكان البيان الموجز يناسبهم في الاستحواذ على نص يُحفظ بسرعة، وتتكون بعد هذا ركيزة فكرية كبيرة من القطع الصغيرة، ويضاف إلى هذا نبرة الغضب التي تتطلب قلة العبارات وقصرها في مخاطبة الكفرة.

ومن هذا القبيل ما لفت الجاحظ أنظارنا إليه، إذ وجد أن الإيجاز والإطناب من حق ملاءمة المقام، وهذا يدخل اليوم تحت عنوان الأسلوبيات، وتلوّن الخطاب تبعاً للمخاطَب.

يقول: «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مُخْرَج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل، أو حكى عنهم، جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام»[1].

وهو يرمي إلى تفوّق العرب على اليهود في مضمار الفصاحة، واشتهارهم بقلة الألفاظ للمعاني الكثيرة، فإذا كان الإيجاز نتيجة للموضوع، فإن النظرة المتفحّصة في الآيات القرآنية تؤكد أن هناك إيجازاً أو اختزاناً من نوع آخر، وهو يتعلّق بجزئيات مكّونة للموضوع، ألا وهو اختزان المعاني بمفردات معيّنة، وذلك أسلوب فني فكري يطّرد في جميع المواضيع القرآنية، ولا يقتصر على موضوع مخاطبة العرب أو غيرهم ولا على المكي أو المدني.

ويفرّق بين الإيجاز والاختصار قائلاً: «ولو أن قائلاً قال لبعضنا ما الإيجاز، لظننت أنه يقول الاختصار، والأيجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طوماء (صحيفة كبيرة) فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ولا لترداده، وهو يكفي من الأفهام بشطره، فما فضل عن الأفهام فهو الخطل»[2].

ولهذه الجمالية أبعاد فنية، بل هي لا تقتصر على الكلام المباشر، فاللغة الانزياحية نوع من تكثيف العبارة يعمّق الإحساس، وهذا ما يذهب إليه النقد المعاصر، إذن يمكن أن نجد جمالية التكثيف في عدد العبارات، وفي احتواء المفردة على المعاني الكثيرة، وفي اختيار اللغة الانزياحية تجاه الحِسّ البشري، أي تكثيف العبارة، وتوسيع مساحة الإحساس.

---

(١) الحيوان: ١/ ٩٤.

(٢) الحيوان: ١/ ٩١.

يقول الدكترو محمد حسن عبد الله: «فالتكثيف ـ هو أهم أسرار المجاز ـ ليس اختصاراً ، أو ليس اختصاراً فحسب ، بل إنه اختصار في سبيل العمق والإطناب ـ إن صح التعبير ـ وحرية التصور ، بل لقد نظر «هربرت ريد» إلى أنواع المجاز جميعاً على أنها نوع من الإطناب المُرَكَّز ، قصد به اختصار الشيء ، ومن ثم يؤكد فضيلتها نافياً عنها أن تعتبر مجرد نوع من إيثار المواربة ، أو عدم المباشرة في التعبير ، بل هي من باب أولى كما يقول تشير إلى نمو في الحساسية الشعرية ، ووسيلة رئيسية في تنمية الذكاء ، وتنمية اللغة أيضاً»(١).

إن الباحث يجد الغيبيات وجوانب التوحيد وأسس العقيدة في السور المدنية ، كما يجد وصف الجنة والنار فيها ، وكذلك نقرأ مفردات قرآنية مدنية النزول أَغْنَتْ عن عبارات مطوّلة ، وإن كان الموضوع فقهياً يتطلب التفصيل.

والقرآن الكريم من الوجهة الأسلوبية نص أدبي معجز يخلو من حواشي الكلام ، وفوق هذا وافق المنطق السوي والطبع البشري ، وواءم كل العصور في تشريعاته ، وهذا هو معنى الإحكام والتفصيل كما نصّت الآيات مثل قوله عز وجل: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ [هود: ١ ـ ٢] ، فمن الطبيعي أن يَتَحلّى هذا النص الأدبي بما هو مقرّر في فن الأدب الراقي ، لذلك يَجْنَحُ البيان القرآني إلى اختزان المعاني إلى حد مُرْضٍ لا يَصِل بنا إلى التعتيم.

إن الإيجاز سمة الأدب الرفيع ، ويُلْحَظ في الشعر بشكل جَلِيٍّ عند

---

(١) الصورة والبناء الشعري ، د. محمد حسن عبد الله ، ص/ ١٢٨ نقل عن النثر الانكليزي للمنظر هربرت ريد ص/ ٣٤.

استخدام الرموز الموحية ، وفي هذا يقول «لاسل آبر كرمبي» : «فن الأدب فنُّ استخدامِ وسائلَ محدودةٍ لتجاربَ غيرِ محدودةٍ ، فكان لابدّ للفنان الأديب من أَن يعرف كيف يجمع في فنه كل ما احتوته الألفاظ من قُوَّة التعبير والتصوير»(١).

فلابُدَّ للأدب الرفيع من الجنوح إلى الإيماء ، ومن ثَمَّ تتفاعل النفس مع المعاني العريضة التي يَكْتَنِفُها اللفظ ، وكأنه نَواة لكل ما يدور من معانٍ وتفصيلات وظلال نفسية .

ويمكن أن نؤكد في المفردة القرآنية ما يذهب إليه النقد الحديث في نظرية التلقي والقراءة وتعدد التأويلات ، ولكن يُحْتَرَز هنا من التعدد قرين التناقض الذي يُسمع به في القراءة الجديدة للأدب .

ويمكن أن تُنْسَب إلى مواد هذه الفقرة شواهدُ الجانب التهذيبي التي وردت في الفقرة السابقة ، ورأينا ألا نَسْتَبْقِيها هناك مع قرائنها من الشواهد ، لنستطيع توضيح سمة الاختزان بجميع وسائله في المفردات .

وسوف نبتعد عن اختلاف القدامى في المصطلح ، فهذه الجمالية اللغوية موزَّعةٌ تحت عناوين الإشارة والكناية ، والإيجاز والتلميح والتلويح والتعريض ، كما أن مفهوم الاختزان ههنا لا يطابق الإيجاز كما ورد في كتبهم ، لأنه يتضمن عندهم الإيجاز في الحَذْف ، كحذف جواب الشرط مثلاً ، وقد يَعْني إيجاز الآية بكليتها ، وغايتنا الإيجاز في المفردة فقط .

وتتناول هذه الفقرة منهج تذوق الدارسين لجمالية الاختزان ، وذلك من خلال نماذجَ نَسْرُدُها من بطون كتبهم ، والجدير بالذكر أننا لا نُعْنَىٰ بالأقوال العامة المُبْهَمة في إيجاز القرآن ، لأننا نقصِد سَرْدَ تطبيقاتٍ

---

(١) قواعد النقد ، لاسل آبركرمبي ، ص/ ٣٥ .

واضحةٍ قَدْرَ الإمكانِ ، تكون هذه التطبيقاتُ في الوقت نفسِهِ مِصْداقاً لمديحهم المُجْمَل ، وتحقيقاً لوجهة النظر التي نستضيء بها ، فنستيقن الجمال القرآني ، ثم نضيف بعض الومضات من خلال الشواهد.

لعلّ الجاحظ أولُ من أشار إلى جمالية الاختزان في ألفاظ القرآن ، وإنْ كان التفسير بالمأثور قَبْلَه يفصِّل معاني الألفاظ ، ولاسيما كتاب أبي عبيدة «مَجاز القرآن» ، بَيْدَ أن الجاحظ ينظر إلى هذا الأمر من زاوية فنية بلاغية ، فقد جاء في كتابه الحيوان أنَّه رَصَد شواهدَ كثيرةً في كتاب له مفقود اسمه «نَظمُ القرآن».

ويقول: «ولي كتابٌ جمَعْت فيه آياً من القرآن لتَعْرِفَ فضل ما بين الإيجاز والحَذْف ، وبين الزوائد والفضول ، والاستعارات ، فمنها قوله تعالى حين وصفَ خَمْرَ أهلِ الجنة: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٩] ، وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين وصف فاكهة أهل الجنة ، فقال: ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٣] ، جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني»(١).

وهكذا تُشير الآية الأولى مثلاً إلى أن خمر الأرض تُسَبّب السُّكْرَ ثم التنازُعَ والفِراق ، وكَثْرَة الإحَن والشَّغَب ، وفيها ذَهاب العقل والمال ، فتختصِرُ الكلمتان كلَّ ما يمكن أن يَحْدُثَ من قبائحَ مادية وروحية نعرِفُها في عصرنا من جَرّاء معاقرة هذا الخمر.

أما القطع والمنع في الآية الثانية ، فتعنيان أن هذه الفاكهة لا يصيبها انقطاع نتيجة فسادها فلا تمنع ذاتها ، ولا يمنعها أحد بقوة خارجية ، فيحصل المؤمن على اطمئنان كبير خصوصاً في الإطار العام من الاستمرار وهو الخلود في الجنة.

---

(١) الحيوان: ٣/ ٨٦ ، وانظر: ٤/ ٢٧٨ منه أيضاً.

والجدير بالذكر أن هذين الشاهدَيْنِ يَرِدان في مُعظم مصنَّفات الدارسين بعد الجاحظ[1] ، وهذا دَيْدَنهم غالباً ، إذ كرروا الشواهد مع التعليق ، ولهذا سوف نسعى إلى ذكر نماذجَ متمايزة تمثّل النظرةَ العامة لديهم ، ونبتعد عن تكْرارهم.

وفي كتاب «تأويل مُشْكِل القرآن» لابن قتيبة ، نجد نقولاً عن أستاذه الجاحظ ، وذلك من غير ذكر اسمه ، ومن هذا القبيل ما ورد في باب العصا عند الجاحظ حول الآية الكريمة: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٣١] فهو يستخدم ألفاظه مُعيداً إياها: «كيف دَلَّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قُوتاً ومَتاعاً للأنام من العُشْب والشجر ، والحَبِّ والثَّمَر والحَطَب والعَصْف واللباس والنار والمِلْح ، لأن العِيدان والملح من الماء»[2].

وأحياناً ينفرد بالنظرة ، فيستطيع أن يُبْرِزَ جمال الاختزان ، كما صنع في تأمله في الآية ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] ، يقول: «والتعريض في الخطبة أن يقول الرجل للمرأة: إنك والله لجميلة ، ولعل الله أن يرزقك بعلاً صالحاً ، وإن النساء لمِنْ حاجتي ، هذا وأشباهه من الكلام»[3].

فكلمة «عرَّضْتُمْ» تشمَل معاني جَمَّـةً تتبادر إلى الذهن ، وليته رَبَـطَ هذه الإشارة بالغاية الأخلاقية في المفردة ، فبِها ينهج القرآن للمؤمنين منهج السَّتْر والتأدب في خِطبة المرأة المُعْتَدَّة لوفاة لا لطلاق، وهي ممنوعة من النكاح ، والكلمة توحي بكَسْر فاعلية اعتراض الرجل للمرأة في هذه

(١) انظر مثلاً الإعجاز والإيجاز ، للثعالبي ، ص/ ١٠ وانظر الفوائد ، لابن قيم الجوزية ص/ ١٣٥ ، الإتقان: ٢/ ١١٩ .

(٢) البيان والتبيين: ٣/ ٢٦ ، وانظر تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، ص/ ٤

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ص/ ٢٠٤ .

الحال ، وتعبّر عن رِفْقِه في التعامل مع المرأة كما ذكرنا في فقرة سابقة .

ولعل البلاغيين استمدوا من هذه المفردة اسمَ مصطلح التَّعْريض الذي قيل في تعريفه : «أن نذكر شيئاً يَدُلُّ على شيء لم يُذْكَرْ ، وأصلُه التَّلْويح عن عُرْض الشيء»[1] ، أي ثمة ظلال في اللفظ المكثّف تتسع دلالتها عند المتلقي ، ويكون فضاء الكلمة واسعاً .

ويتخذ مفهوم الإيجاز طابعاً عاماً لدى الرمّاني ، فشواهده تدلنا على جميع أقسام الإيجاز ، وهي تشمل المفردات التي ذكرها الجاحظ ، فهذا الإيجاز يشمَل الحذف كحذف المفعول به وجواب الشرط ، واختزالَ عدد الكلمات ، وغير هذا يقول : «الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد ، وإيجاز باعتماد الغَرَض دون تشعُّب ، وإظهار الفائدة بما يُسْتَحسن دون أن يُسْتَقبح ، لأن المستقبح ثقيلٌ على النفس ، فقد يكون للمعنى طريقان أحدهما أقربُ من الآخرِ ، كقولك : تَحَرَّكَ حَرَكة سريعة في موضع ، وأَسْرِع»[2] .

إنه يعطينا البُعْدَ النفسي للاختزان ، وينظُر إليه بعين الجمال ، بَيْدَ أنه لا يقدِّم شواهدَ وفيرةً ، لأن بحثَه رسالةٌ ، وهو لا يربط الإيجاز بالمفردات شأنُه شأنُ الباقلاّني الذي يرى في الآية : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ ﴾ [الرعد : ٣١] جمالَ حذف جواب الشرط ، فهو إذن إيجاز جُمَلٍ لا مفرداتٍ[3] .

وبَعْدَ الباقلاني يضع أبو منصور الثعالبي كتابَه «الإعجاز والإيجاز» الذي مَهَّد له بفَنّ الإيجاز القرآني ، إلا أن هذا يقع في أربع صفحات

---

(١) الفوائِد ، ص/ ١٣٥ .

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص/ ٧١ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ، ص/ ٩٠ .

فقط ، وهو يقول: «مَنْ أراد أن يعرِفَ جَوامِعَ الكَلِم ، ويتنبَّهَ على فضل الإعجاز والاختصار ، ويُحيطَ ببلاغة الإيماء ، ويفطَنَ لكفاية الإيجاز فليتدبرِ القرآن ، ولْيتأملْ عُلُوَّه على سائر الكلام ، فمن ذلك قوله عزَّ ذِكْرُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [الأحقاف: ١٣] استقاموا كلمةٌ واحدة تُفْصِحُ عن الطاعات كلِّها في الائتِمار والانزِجار»[١].

إنه يخص المفردة باهتمامه ، فهو يَنْحو مَنْحى الجاحظ ، وقد سَرَد شواهدَ متلاحقةً مما يَدُلّ على إحاطتِه وعمقِ تدبره ، وقد حَرَص على أن الإيجاز في كلمة واحدة، مستخدماً كلمة «جَمَعَت» كما كان من الجاحظ.

وهو يحاول تبيينَ العِلَّة في جَمال الكلمة المختزِنة كما جاء في تأمله للآية الكريمة ﴿ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] إذ يقول: «فالأمن كلمة واحدة تُنْبِيءُ عن خلوص سرورهم من الشوائب كلِّها ، لأن الأمن إنما هو السلامة من الخَوف» ، فإذا نالوا الأمْنَ بالإطلاق ارتفعَ الخوف منهم ، وارتفَعَ بارتفاعِه المكروهُ ، وحَصَل السرورَ المحبوب»[٢].

ثم يبين في الموضع نفسه طبيعةَ النفس البشرية التي يوائِمها بعدُ الخوف والحزن ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] ، فقد قال: «فقد أَدْرَجَ فيه إقبالَ كلِّ محبوب عليهم ، وزوالَ كلِّ مَكْروه عنهم ، ولا شيءَ أضرُّ بالإنسان من الحزن والخوف ، لأن الحزن يتولَّد من مكروه ماضٍ أو حاضرٍ ، والخوف يتولَّد من مكروه مستقبل ، فإذا اجتمعا على امرِىء لم ينتفع بعَيْشه بل يتبرَّمُ».

لقد أشار إلى أسلوب القرآن الذي يقدم مادة لغوية قليلة للدلائل الكثيرة في كلمة «أَدْرَج» وكلمته التي تتكرر أيضاً «كلّ» ، ونحن لا نراه

---

(١) الإعجاز والإيجاز للثعالبي ص/ ١٠.

(٢) المصدر نفسه ، ص/ ١١.

يقف على اللغة ، بل يحاول أن يبسُطَ جمال الاختزان من خلال واقع البشر ، وهكذا شملت كلمتا الخوف والحزن كلَّ مراحل حياة الإنسان.

وتُعَدّ وقفات الزمخشري على جمال المفردة كثيرة وغنية المحتوىٰ ، وهو يدل على ذوق رفيع ، ومعرفة لغوية واسعة ، ومن هذا تأمله للآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤] ، فهو يقول: «فإن قُلْتَ: لم عَبّر عن الإتيان بالفعل، وأيُّ فائدة في تركه إليه؟ قُلْتُ: لأنه فعل من الأفعال ، تقول: أتيت فلاناً ، فيُقال لك: نِعْمَ ما فَعَلْتَ ، والفائدة فيه أنه جارٍ مَجْرَىٰ الكِناية التي تُعطيك اختصاراً وَوَجازةً عن طُول المُكَنّى عَنْه»[1].

فهو يلتفت إلى شمول «تَفْعَلوا» ، وكأنه يَرى في استعمال الكناية أن كل شيء في التصرفات الإنسانية هو فِعْل ، فهو أَعَمّ من أفعال أخْرى . مثل: أَتَى أو نَظَّم أو كَتَب ، ونرى أنَّ عُموم الفعل يَدُلّ على مُنْتَهى عَجْزِهم عن معارضة القرآن مهما تَعَدَّدت القُوىٰ والوسائل البشرية.

ويضع ابن أبي الإصبع أمثالَ هذه الشواهد تحت عنوان الإشارة ، أي اللفظِ القليلِ للمعاني الكثيرة ، ومما يَلْفِت النظر أنه من أعلام القرن السابع الهجري الذي كَثُر فيه النَّقل عن المُتَقَدِّمين ، وعلى الرغم من هذا يُعَدُّ ما وقع عليه في هذا المجال تفرُّداً ودَليلاً على تذوقٍ وتفهمٍ كبيرَين ، يقول عن قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤]: «فإنَّ غَيْضَ الماء يصير إلى انقطاع مادة الماء من نَبْع الأرض ومطر السماء ، ولولا ذلك لما غاض الماء»[2].

فقد غَنَتْ الكلمة عن كلمات أخرى لتصوير الحَدَث ، كذلك ما جاء حول الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾

---

(١) الكشاف: ١/ ٢٤٧.

(٢) بديع القرآن ، ص/ ٨٢.

[القصص: ٤٤] فيدلُّ على تعمّق قائلاً: «فانظر إلى ما أشارت إليه لفظة «الأمْرَ» من ابتداء نبوة موسى عليه السلام، وخِطاب الحقِّ له، وإعطائه الآيات البَيِّنات من إلقاء العَصا، لتصيرَ ثُعْباناً، وإخراج يدِهِ بيضاءَ، وإرساله إلى فرعون، وسؤاله شدّ عَضُدِه بأخيه هارون، إلى جميع ما جرى في ذلك المقام، وأمثال هذه المواضع كثيرة إذا تُتُبِّعَتْ خَرَجَت عن حَدِّ الحصر في الكتاب العزيز»(١).

فقد استعيض عن تكرار ذكر الأحداث بهذه المفردة الجامعة، وهذه السمة متواترة في القصة القرآنية، وإننا لنرجِّح ما جاء لدى الجاحظ والثَّعالبي، لأن المفردات عندهما أَغْنَتْ عمّا لم يُذْكَر، وهي هنا أغنَتْ عن التكرار، ويبدو ذكرُها أقرب إلى الاعتيادي في الكلام.

ويمكن القول إن الدارسين استفادوا بعضَ الشيء من إشارة الجاحظ إلى إيجاز الكلمات الجامعة في القرآن، وكان في إمكانِهم الاعتمادُ عليها في ذكر كلمات أخرىٰ مع منهج فني متخصص.

ب ـ تكثيف الصيغ:

وفي هذا المجال لابدَّ من المرور بأهمية الصيغة: صرفية وغير صرفية مما يُغني عن مفردات كثيرة أو عن جُمْلة خَبيئة في طيّات هذه الصيغة.

والحق أن عبد القاهر الجرجاني أبدى اهتماماً كبيراً بأَثَر الصيغة، إلا أنّ هذا مرتبط عنده تماماً بمسألة النظم، وهو لا يخص المفردة بجمال، لأنه مهتم بالسياق الكلي بحسب العلاقات النحوية.

إن أول ملحوظة لهذه السمة الفنية نجدها في كاب «الحيوان» للجاحظ في مكانٍ منه مخصوص لميزات الكلب، فيقف عند الآية: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] إذ يقول: «فاشْتَقَّ لكل

---

(١) ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، ص/ ٨٣.

صائد وجارح كاسِب من بَازٍ وصَقْر وعُقَاب وفَهْدٍ وشَاهِينٍ وزُرِّقٍ ويُؤْيُؤ وباشِق وعَناق الأرض من اسم الكلب ، وهذا يدُلّ على أنه أعمُّها نفعاً ، وأبعدُها صِيتاً وأنبَهُها ذِكْراً»[1].

فقد استغنى المقام باشتقاق «مُكَلِّبِينَ» من الكلب عن تَعْدادِ الكثير من سِباع البهائم والطيور.

وقرين هذا ما ورد لدى تلميذه ابن قتيبة حول الآية الكريمة: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ، إذ يقول: «أي كل ذي مِخْلَبٍ من الطير ، وكل ذي حافِرٍ من الدَّوابِّ»[2].

وهو يكتفي بجانب التوضيح اللغوي صنيعَ الجاحظ في كلمة «مُكَلِّبِينَ» ، وقد أسْهَب في ذكر أشعار وَرَدت فيها كلمة «ذي ظُفُر» ، بدلاً من أن يقدم شواهد قرآنية أخرى.

ومن هذه الوجهة اللغوية ينطلق الشريف الرضي عندما يتأمل بعض الصيغ ، فلا يُضْفي على الجانب اللغوي شيئاً من الأثر الوجداني ، كما جاء في تأمله للآية الكريمة على لسان إبليس: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢] ، فهو يقول عن اشتقاق فعل احْتَنَكَ: «هو أن يكون الاحتناك ههنا افتعالاً من الحَنَك ، أي لأقودنَّهم إلى المعاصي ، كما تُقاد الدابَّةُ بحَنَكِها غيرَ مُمْتَنِعَة على قائِدِها»[3].

ولاشك أن الإيجاز الذي تَأَتّى هنا من الصيغة يناسب نبرة الغضب والتمرد التي تتطلب قِلّة العبارات ، فالغاضِبُ لا يفصِّل كلامه تفصيلاً ، بل يُلقيه قذائفَ ، والكلمة تُوحي بالمستوى البهيمي لمَنْ يتبع الشيطان

---

(١) الحيوان: ٢/ ١٨٧.
(٢) تأويل مشكل القرآن ، ص/ ١١٦.
(٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي ص/ ٢٠٢.

وأتباعَه ، بل إن مسيرة الحركات في هذه الكلمة تجسم نبرة الانفعال الشديد والشريف الرضي مُقِلٌّ في هذه التأملات.

أما الزمخشري فغالباً ما يربط جمال الصيغة بأهمية التهذيب في الأسلوب القرآني ، وهو لا يردد ما سبق من تلميحات ، كماأنَّه يضيف إلى معرفته النحوية واللغوية شيئاً من التذوّق الرفيع ، ليفسِّرَ الجمال اللغوي وأثرَه النفسي.

ج ـ تكثيف التسامي:

لاشك أنّ الكلمات التي وردت لغاية التهذيب مالَت بغالبيّتها إلى الاختزان ، فالقرآن الكريم يذكر مفردات تُغْني عن التفصيل الذي ربما يجنح إلى تجريح المخاطَب ، أو إلى ذكر ماهو فاحشٌ رَذيلٌ ، ومثل هذا ورد في الكنايات.

ولنتأملْ قوله عز وجل عن مباهج الجنة التي يُرغِّب بها المؤمنين: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١] ، فهذه الكلمات تختصر معالمَ كثيرةً ورغائبَ وفيرةً من نساء وطعام وشراب وخُضْرة ، وصيغة التعميم تدُلّ على إفساح المجال للخَيال ، وتصوِّر ما قد يَخْطِر على النفس وتستريح إليه العين.

وقد قال ابن أبي الإصبع في هذه الكلمات: «فألمح إلى كُلِّ ما تَمِيلُ النفوس إليه من الشهوات ، وتَلَذّه الأعين من المرئيات ، لتعلم أن هذا اللفظ القليل جداً عبَّر عن معانٍ كثيرةٍ لا تنحصر عَدّاً»[١].

إذن فقد حصرت هذه الكلمات كل جمال لا يتوقع في عالمنا

---

(١) تحرير التحبير ، ص/ ٢٠٢.

الدنيوي ، وهو يشتمل على المرئيات والمسموعات مناسباً الحاستين البشريتين اللتين توائمان الحِسَّ الجمالي.

ومثل هذا ما ورد في وصف نساء الجنة ، فيعبِّر البيان القرآني بالكلمة والكلمتين عن الجمال الشكلي وجمال المضمون الخلقي ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ [الرحمن: ٥٦] ، فعبر بهاتين الكلمتين عن عفافهن وشرفهن وفرحة أزواجهن ، وما يتصل بالقناعة والرضا وعدم التطاول ، ويكتفي الدارس القديم عادة بالقول ، إن هذا من باب الإشارة كما كان من ابن قيم الجوزية.

وقد حَضّ القرآن الكريم على طاعة الوالدين ، ومن هذا قوله عز وجل: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ ﴾ [الإسراء: ٢٣] فكلمة «أُفّ» تَشْمل ترك التعرض لهما بيَسير من الإيلام النفسي فضلاً عن كثيره.

وهذا ما يدعى عند الأصوليين بـ «مفهوم النص» أي يفهم من عدم وجود هذه الحركة النَّزقة ما يمكن أن يحدث من شنائعَ كالإيذاء النفسي والجسدي ، فتحريم الكثير أولى من تحريم القليل.

ولاشك أنّ انتزاع المفردة من عملية حسية هي النَّفْخ في التراب ، وما إلى ذلك ، جَعَلها تصوِّر بحِسية هذا الموقف ، فهي اسم صوت بمعنى أَتَضَجَّر ، وهي تختزن ما يقال قبلَها ، وما يُقال بَعْدَها من كلمات غيرِ لائقة بمكانة الوالدين السامية ، فقد مَثَّلت الحال النفسيةَ بحِسِّيتها.

ولنتأملْ تصوير الكفار يوم القيامة في قوله عز وجل: ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ ﴾ [الشورى: ٤٥] ، فإن كلمة «خَفِيّ» تختزن كلّ المعاني النفسية التي يتَّسم بها ذلك الذليلُ ، وهي مُنْتَزعة من صورة بَصَرية ، وتختزن كلّ تأوُّهـاتِـهِ وحَنَقِهِ على من أَضَلَّه وقد رأىٰ العذاب ، وتُوحي بإيجاز رائع بخَجْلَته من خالقه وانكساره.

إن الاختزان المتصل بالتهذيب واردٌ بكَثْرة في مفردات سَرْد القصة

القرآنية ، كما وجدنا في الفقرة السابقة ما جاء في الحديث عن قوم لوط وقصة يوسف عليهما السلام.

وكما أن التهذيب لا يقتصر في القرآن الكريم على الأمور النسائية ، فكذلك اختزان التّهذيب ، فهناك الكثير من المفردات دَلَّ عُمومُها على مُلاطفةٍ وحُسْنِ خِطاب ، ومن ذلك إطلاق كلمة «الناس» على المنافقين في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨] ، وهي أكثر ما وردت في سورة البقرة ، ونجد أنها مرة تعني الكفار ، ومرة تعني المنافقين ، ومرة تعني اليَهود ، ومرةً تعني بَني آدم جَميعاً ، وهي تُفيد عُمومَ الرسالة السماوية ، فلا عَصبيةَ ولا قَبَلية ولا جِنْس أو عِرْق ، إلا أنَّ عُمومها في الحديث عَنِ المنافقين يَدُلّ على ملاطفة الخالق لهم ، واستِجْلاب قلوبهم.

وفي هذا يقول الدكتور أحمد بدوي: «ألا ترىٰ في اختيار كلمة «الناس» وعمومها عدم مجابهة المنافقين بتَعْيينهم ، وفي ذلك سَتْر عليهم ، وإغراءٌ لهَم بالإقلاع عن نِفاقهم ، ذلك أنهم ما داموا لم يُعَيَّنوا من المتوقع أن يُصْغوا للقرآن»(١).

لقد كان في الإمكان ذكر أسماء شخصيات من اليهود والمسلمين الذين كانوا يُظهرون الحقَّ ويُخفون الباطلَ ، ومثل هذا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ٢٠٤] فالكلمة تُشير إلى رؤوس النفاق ذَوي الكلام المُعَسَّل والضمائر الحاقدة ، وقوله عز وجل: ﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٠] ، فهي تعني المشركين الذين يعرفون مِلَّة إبراهيم عليه السلام ، واليهود الذين قرؤوا في التوراة عن قِبْلة النبي الجديد ، وفي هذا

---

(١) من بلاغة القرآن د. أحمد بدوي ، ص/ ٢٨.

غايةُ الأدبِ من حيث لا يُهان مَنْ كان على الدين ، ويُسَتَّر على أخطائهم ، ومثل هذا يقع عند الزركشي والسيوطي تحت عنوان «المُبْهمات» في كتابيهما البرهان والإتقان ، فقد ذَكَر أسماءَ من نَزَلت فيهم مثلُ هذه الآيات.

وقد تَواتَرَ هذا في الدراسات الإسلامية في عصرنا ، فكثيراً ما يعبِّر الباحث في الفكر الإسلامي عن المتطرفين في الدِّين ، أو عن أصحاب الفِكر المُعَارض للإسلام ، وكل من يُعادي الإسلام بكلمة «الناس» ، وهذا يدلّ على تأدب ، ويُلحق به أيضاً عدم ذكر اسم الشخص الذي ينالُ من الإسلام أو يُغالي فيه.

د ـ ملامح أخرى للتكثيف :

وفي سورة يُوسُف نقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: ٣١] ، وكلمة «مُتكَأً» تعني للوَهْلة الأولى تلكَ النَّمارقُ المُعَدَّة للجلوس ، ولكنها بعد التمحيص تتكشَّف عن ترفّع مُحقّ لتصوير انبساطِهن ، وكيفية الجلوس ، والحديث الفَكِهِ مع الراحة ، وهذه الكلمة أبْعَدَتْنا عن جَوّ الجوع والطَّعام.

وفي هذا يقول الدكتور البوطي: «لم يعبِّر عن ذلك بالطعام ، فهذه إنما تصور شهوة الجوع ، وتنقل بالفكر إلى «المطبخ» ، بكل مافيه من الطعام ورائحته وأسبابه ، «مُتكَأً» كلمة تصور ذلك النوع من الطعام الذي يقدم إلى المجلس تفكُّهاً وَتَبَسُّطاً ، وتجميلاً للمجلس ، وتوفيراً لأسباب المتعة فيه ، ولذلك فالشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكّاء»[١].

---

(١) من روائع القرآن. د. محمد سعيد رمضان البوطي ص/ ١٤٤.

وجميع التفاسير لا تبعد عن كون المتكأ نمارقَ للجلوس والإمساك بالسكاكين[1] ، ومن هنا يتبين لنا أن المعاصرين تعمَّقوا في جمالية الاختزان الذي يدعو إلى الترفع والتأدب في كلمات لا علاقة لها بالنساء ، إذ كان نصيب التهذيب في شؤون المرأة كبيراً عند القُدامى .

وأخيراً لابدّ من القول إن التفسير العلمي الحديث جعلنا نتأكد من أن بعض المجاز في القرآن الكريم حقيقةٌ ، وذلك في مواءمة المفردة لكلّ عصر ، فالدلالة تستمر وتتسع لمفاهيم كل عصر ، ويتلقَّف هذه المفردة كلٌّ بحَسَبِ فَهْمه وقدراته العقلية ونوع ثقافته ، وذلك من غير إقحام أو تقوُّل ، لأن مُرونة الكلمة القرآنية ليست عَشْوائية .

يقول تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] ، والاختزان يكون في إفهام هذا وذاك من البَشَر ، وهذا مما يجعل في العقل مُرونة ، ويفتح باب التفكير الذي هو فريضة إسلامية .

والكلمتان «سِراجاً ، مُنيراً» تَحْمِلان في طيّاتهما كلَّ المعاني المتغيرة مع تغير الزمن وتقدّم العلوم وتبدُّل أفْهام الناس ، وقد قال الدكتور البوطي: «فالعامي من العرب يفهم منها أن كُلّاً من الشمس والقمر يَبْعَثان بالضياء إلى الأرض ، وإنما غايَـرَ في التَّعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعاً للفظ ، وهو معنى صحيح تدُلُّ عليه الآية ، والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدلّ على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارةَ، فلذلك سمّاها «سِراجاً» ، والقمر يبعَث بضياءٍ لا حرارةَ فيه ، وهو أيضاً معنى صحيح تدلّ عليه الآية دَلالةً لغويةً واضحةً ، أما الباحثُ المتخصصُ في شؤون الفَلَك ، فيَفْهَم من الآية إثباتَ أنّ القمر جِرْمٌ

---

(١) انظر مثلاً إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٧١ .

مُظْلِمٌ ، وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياءِ الشمس التي شَبَّهَها بالسراج»[1].

لقد قدَّم الدكتور البوطي بعضَ الشواهد في هذا المجال ، وهي تُقْرَن بكل ما يجيء لدىٰ كُتب التفسير العلمي الذي يبحث في دقائق القرآن الطبية والفكلية والجيولوجية وغيرها ، وقيمة الاختزان تتجلّى في عدم انغلاق المعنى على نفسِهِ ، بل يظلّ مفتوحاً أمام القارىء ، وكأن المفردة تمتَلِكُ أكثر من معنى ، وذلك عندما يفهمُهما كلٌّ بحسَبِ ثقافته ، وهذا من مزايا إعجاز القرآن الكريم.

والقرآن كتاب هداية وإرشاد ، وليس من مَهَمَّتِهِ الحديثُ عن حقائق الوجود العلمية ، ومع ذلك لم تَخْلُ آياته من التعبير عن حقائق كثيرة أثبتها العلم الحديث ، ودلّت هذه الآيات على إعجاز القرآن وبَيان مصدره الإلهي.

ومن هذه الآيات قوله عزَّ وجلَّ عن تَلْقيح السحاب : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [الحجر : ٢٢] ، وَقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ [النور : ٤٣] ، والمراد بفعل يزجي : يسوق ، والودق : المطر.

فالمفسِّر القديم يرىٰ في ذكر لواقح شكلاً من المجازات البلاغية ، لأنها في الأصل تَعْني اجتماع الذكر بالأنثى للناقة أو الشجرة ، والعلمُ الحديث يؤكِّد أن السَّحاب مُكَهْرَبٌ ، وأنَّ الموجِب والسالِب لا يتنافران ، كما أثبت «فرنكلين» لأول مرة عام ١٧٥٢ م ، فالتأليف بين السَّحاب

---

(١) من روائع القرآن ، ص/ ١١٤ ، ووراجع شواهد أخرى في مناهل العرفان: ٢/ ٢٥٢.

إشارة واضحة ووصف دقيق للتقريبِ بين السحاب مُخْتَلف الكَهْربائية[1] وهذا المفهوم الحديث لا يتناقض مع مفهوم المفسِّر القديم ، الذي يرىٰ في التأليف أو التلقيح مجرَّدَ ضَمِّ السَّحابة إلى سحابة أخرى .

وهكذا وجدنا أن اختزان المفردة للمعاني الكثيرة يتجلى في عِدة مجالات ، وأن القدامى قدَّموا أفكاراً جيدة عندما نهَجوا نَهْجَ الجاحظ ، وعندما تقدمت فنون البلاغة وضعوا هذه السِّمة تحت عناوينهم المختلفة ، وهم ـ وإن اعتمدوا النَّقْلَ عَنْ أسلافهم ـ قد أبْدوا تأملاتٍ لهم تَدُلّ على تذوق وتَدَبُّر ، خُصوصاً الزمخشري وبعض ممَّنْ تَبِعَه ، وجاءت جهود المُحْدَثين مكمِّلة لجُهود القُدامى ، ولابُدَّ من الإشارة إلى أن المَعِين لن يَنْضُبَ لدراسة أدبية توضِّح سمة الاختزان في مُفْردات القرآن .

* * *

---

(١) روح الدين الإسلامي ، عفيف طبارة ، ص/ ٥٧ ، وراجع تفسير الجلالين ، ص/ ٤٧٠ .

احتواء الموقف والمعنى

من الطبيعي أن تكون كل المفردات القرآنية المصوِّرة والموحية والمعبّرة تحت عنوان هذه الجمالية: احتواء الموقف أو ما أطلق عليه الدارسون الأسلاف اسم مناسبة المقام ، هذا نهج القرآن الكريم في نسيجه المتكامل المتماسك.

وذلك لأن النص القرآني أَوْحَد ومعجز ، إذ يشتمل على كلمات لا تكون نافرة أو متقلقلة في مكانها ، ولا تكون حشواً يُستغنى عنه ، إذ لا يجوز هذا في النص الإلهي ، ولا يجوز على الكرم الرباني الذي يوافق العقل والشعور أن يوجد مغمز إمكان الزيادة والنقصان أو التبديل.

إن قضية الاحتواء تحتاج من الدارس إلى معارف متنوعة ، دينية وفنية ولغوية ، فثمة نظر من خلال المعطيات الدينية ، ونظر من خلال المعايير اللغوية ، ونظر من خلال المعارف الجمالية الفنية ، وغير هذا مما يجمع بين الوعي الجمالي الجماعي والوعي الجمالي الفردي.

وفي هذه الفقرة حرصنا على جمع بعض نظرات القدامى المشتملة على تفرد ، الغائية عن التقليد ، فبحثنا عن التجديد في القديم والحديث ، وحاولنا التحليل وفق المناهج الأدبية المعاصرة التي تدعو إلى التوقع وتعدد الدلالة.

وقد خُصِّص للموضوع القرآني حجم مستقل معين ، فلا زيادة

ولا نقصان ، ولا يكون الإيجاز قائماً في مكان الإطناب ، ولا يكون الإطناب مكان الإيجاز ، لأن الفكرة هي المقدّمة ، وهي التي تحدّد أسلوبها ، وهذا أولى ما يكون ملائماً لأن يتصف به النص الإلهي الذي يجمع بين الإقناع والإمتاع ، وبين الأداء الحق والتدبير الجميل.

في هذه الفقرة نتحدث عن هذا الاحتواء الرائع من خلال انتقاء مفردة من المفردات لسياق مخصص ، أو من خلال تخصيص الدلالة اللغوية ، لتحقق إيحاءاً نفسياً ، أو توسع ظلال الدلالة اللغوية ، لتعدد المفاهيم والإشعاعات النفسية عند المتلقي.

من هذا قوله عز وجل: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] ، فقد تجد عبارة «نزلاً» معبرة عن المقام الطويل والاستراحة التامة ، وفيها من التصوير أنها تصوّر المنعم بنعيم الجنة غائصاً في المباهج حتى تحيط به ، أو غائصاً في العذابات المختلفة حتى تكاد تخنقه ، مع أن الكلمة معبرة عن جهة مَدَنية.

والعلاقة بين الشيطان والمنافقين أو الكافرين ليس أقوى من أن تكون علاقة ولاء قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ، وكأنما ثمة عهد بين الطرفين ، حتى يغدو الشيطان مسؤولاً عن تصرفات الطرف الثاني ومطالبهم ، فهم هَمٌّ له ، وهم جبهة له تعضد فكره.

وقد تكون المفردة عادية جارية على الألسن ، فإذا قرئت في سياقها القرآني وجدنا لها طعماً آخر ، وتأثيراً فريداً لا نعرفه في حدودها الطبيعية المتعارف عليها وفق المعنى المعجمي ، وإذا كان النقاد قد تحدثوا عن شعرية الشعر من خلال رؤيا الأديب ، فليس من المستبعد أن نتحدث عن قرآنية الكلمات ، هذه القرآنية التي تلبس الكلمات معالم غيبية وجماليات فريدة.

وقد ذكر النقاد أن العامل الفردي عند المبدع هو الذي يضخ طاقة جديدة للكلمات ، ويبث إيحاءات متنوعة ، وليس هناك أحق بالفردية من الله عز وجل الذي يترفع عن مخلوقاته ، فيأتي أسلوبه مهيمناً على سائر الأقوال ، وتأتي معانيه فوق المعاني المخلوقة البشرية .

يقول الدكتور شكري عياد: «إن الشعرية إذا تحققت بالتعامل الإفرادي ، أو (الاختيار والتوزيع) ، فإنها تمتنع إذا فشل الاختيار الفردي في منطقة المواضعة ، وإذا ظل الاختيار التركيبي في منطقة المألوف ، بل لابد من مغادرة هذه المناطق ، وزرع الدال في وسط تعبيري يعمل على تفريقه من دلالته جزئياً أو كلياً»[1] .

وسنسرد هنا بعض الشواهد القرآنية ، ونستعين بنظرات الدارسين في كتب الإعجاز والتفسير القديمة والمعاصرة ، لكشف هذه الجمالية في احتواء المواقف وإطلاق المعاني الحافة connatations .

ونسعى إلى الترتيب التاريخي قاصدين تباين الأذواق والخَلْفية الثقافية وأثر العصر في إبراز هذه السمة ، لتكون هذه المناهج القديمة عوناً لنا في تأكيد الجمال القرآني ، وعوناً لمن يتصدى لفنون القرآن الكريم .

من المحتم أننا نتجنب هنا ما هو مكرور عن عبارات الدارسين حَذَرَ الإطالة التي لا تقدم الجديد ، كما نتجنب الأقوال العامة في قضية ملاءمة المفردة القرآنية للموضوع ، لأننا نهرع مباشرة إلى التطبيق فهو الحجة البيانية .

هذه الحجة المقنعة والممتعة نتلقفها من تحليلات فنية سردها الدارسون ، مما يعد زاداً وفيراً وعطاء زاخراً ، ومن الطبع أن نتجاوز هنا ما ورد عن الأستاذ عبد القاهر الجرجاني حول تمكن المفردة في سياق

---

(١) دائرة الإبداع ، د. شكري عياد ، ص/ ٣٣.

الآية ، لأنه لا يوليها الاهتمام اللازم ، فهو ينظر إلى التركيب الكلي ، وبتعبير آخر ، ينظر إلى النص كله بعد دخول المفردة فيه ، وينظر إلى العلاقة النحوية التي تعد منطلق الجمال.

أ ـ المعيارية والتذوق:

لقد مرّ بنا في الفصل الأول كيف ألمح الجاحظ بنظرة عميقة في كتابه «البيان والتبيين» إلى دقة النظم القرآني ومراعاة الفروق اللغوية الدقيقة، فهي المحتكم الدال على مقدرة لغوية فائقة ومعرفة السياق الخاص الذي يتطلب لفظة ما، وهكذا فرّق القرآن الكريم في أدائه بين الجوع والسغب، وبين المطر والغيث، فالسَّغَب جوع شديد، والغيث للرحمة والمطر للعقاب، فثمة حيثيات تراعى، وأُطُر مكانية أو زمانية تقدّر.

ويمكن أن نستشهد بالآية الكريمة: ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ [يوسف: ١٧]، إذ استخدم البيان القرآني كلمة الأكل دون الافتراس، وهذا ما ألمح إليه الخطابي الذي راح يفنِّد حُجج الملاحدة والفساق الذي يدّعون إسفاف كلمات القرآن الكريم وتناقضه، وبعد الكلمة المختارة فيه عن القانون القوي المعهود.

يقول الخطابي: «فإن الافتراس معناه في فعل السَّبُع القتل فحسب، وأصل الفرس دقّ العُنُق، والقوم إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مِفْصلاً ولا عَظْماً، ذلك لأنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكُروه»[1].

فالمعارضون الملاحدة يرون صحة الاستخدام اللغوي في «افترسه» الذئب، في حين يرى الخطابي أن البيان القرآني لا يتسم بالزلل والفوضى في إلباس المعاني بالألفاظ، فثمة حيثيات خصوصية في الموقف تتطلب

---

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز، ص/ ٣٧.

هذا الفعل لا غيره ، فالفعل «أكله» يدل على إخفاء آثار الجريمة ، فإن المدلول قد تغير فكيف لا يتغير الدال.

ويؤيد ما ذهب إليه الخطابي أن فعل «أكل» ورد قبل أن يدّعوا ما ادّعوا ، فجاء على لسان أبيهم يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣] ، إنه الأكل وليس الافتراس.

ويبدو أنه قصد فعل الأكل ناظراً إلى ما يمكن أن يدَّعوه من إخفاء آثار الجريمة ، ولعله نظر برحمة إلى ضآلة جسد ابنه يوسف عليه السلام ، وكأنه قطعة صغيرة يلتهمها الذئب ، ففي التوقع الأول عند الإخوة حنكة وفي التوقع الثاني عند الأب رحمة.

وننظر في كلمة الإيلاج من الآية الكريمة: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧] ، وقد ذكرت هذه المفردة عشر مرات ، وهي من البلاغة بحيث حققت الواقع المرصود في علم الفلك الآن من حيث دوران الأرض وكرويتها.

يقول الشريف الرضي: «ولفظ الإيلاج هنا أبلغ ، لأنه يفيد إدخال كل واحد منهما في الآخر ، بلطيف الممازجة ، وشديد الملابسة»[١].

وثمة جهد نجده في كتاب «درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز» الكتاب النفيس المنسوب إلى الخطيب الإسكافي ، وقد عرض فيه صاحبه للآيات التي تتشابه مفرداتها ، وتتغير فيها كلمة أو كلمتان ، فاستطاع أن يقنعنا بارتباط هذا التغيّر بالموقف الذي يبسطه القرآن الكريم.

ورد في موضع من سورة الكهف ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] ،

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص/ ١٢٣.

وفي موضع آخر ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] ، فتغيرت الكلمة الأخيرة مع أن القائل واحد ، وذلك لتطور الحدث القصصي الذي ناسبته الكلمة «إمراً» ثم «نكراً».

وجاء في درة التنزيل: «قيل: الإمر إنه الداهية ، وقيل: إنه العَجَب ، والنكر ما تنكره العقول ، ولا تعرفه ولا تجوزه.. والنكر لا يُستعمل إلا في الأمر المذموم الذي يخرُج عن المعروف في العقل أو الدين ، فاختص الأول بالإمر ، لأن خرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي هَلَك»(١).

وهكذا يمهِّد بالمعرفة اللغوية لبيان حق المفردة في الوجود دون غيرها ، لملاءمة الموقف ، ويمتاز أسلوب صاحب هذا الكتاب بالإحاطة ، فلا توجد آيات متشابهة الألفاظ إلا أوردها.

ويمتاز هذا الكتاب أيضاً بدقة المعيار اللغوي ، ولكن لا يكتفي به في بعض الشواهد كما في تفسيره للآية الكريمة: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢] ، وللآية الكريمة: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

فقال عن زيادة «غم» في الآية الأولى: «فلما وصفهم بأن العذاب من جميع الجوانب اكتنفهم ، صاروا بإحاطة ذلك بهم ، وسدّ أنفاسهم عليهم بمنزلة البعير المغموم بالغمامة التي تسدّ منفسه ، فلا يجد فرَجَه ، والآية التي في سورة السجدة لم تشتمل من إحاطة العذاب بهم من ذكر الثياب من النار ، وصب الحميم ، وإذابة الشحوم»(٢).

---

(١) درة التنزيل ، ص/ ٢٨٤.

(٢) درة التنزيل ، ص/ ٣٠٩.

وكلمة غم عند صاحب درة التنزيل تتخذ تأثيراً شديداً لصلتها بالطابع الحيواني الذي يذكِّر بمسلك الكفرة المنحطّ في الأرض عقيدةً وتصرفاتٍ ، وكذلك ترسم الأجواء الخانقة ، لأن المعذب محوط من كل جانب ، فهو داخل سجن من نار ، وسجن يحيط بذاته ، فالمحاصرة ألم نفسي يزيد الألم الحسي.

وقال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤] ، ونجد طيبة النفس أعلى درجات الرضاء.

ويمكننا ههنا أن نذكر وقفات الزمخشري التي بَسَط فيها الظلال النفسية ، فضلاً عن تأمله النابع من معرفته بالفروق اللغوية بين الكبير والعظيم ، وبين الأذى والضرر ، مؤكداً حقية المفردة بالسياق وإشعاعها النفسي.

يقول في الآية السابقة: «ولم يقل: فإن وهبن أو سَمَحْنَ إعلاماً بأن المراعىٰ هو تجافي نفسها عن الموهوب طيبةً ، وقيل: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ ﴾ ولم يقل: (فإن سمحن لكم عنه) بعثاً لهن على تقليل الموهوب»[1].

فالكلمة تنم عن راحة صدرها التامة وهي تتخلّى عن بعض صَداقها ، بل إن التركيب الصوتي يوحي بالسكينة والرضا ، إذ نجد الكسرة التي تومىء إلى التواضع ، ثم السكون ثم الفتحة المعبرة عن انفتاح النفس والرضا.

وكما نرى لا يمكننا أن نكتفي بمطابقة الحقيقة كما يكون في الاعتماد على اللغة ، والحق أن الزمخشري كثيراً ما يقف لإبراز بلاغة القرآن الكريم حتى في الآيات الفقهية التي تبين الأحكام الإسلامية ، وتبعه في

---

(١) الكشاف: ١/ ٤٩٩ ، وانظر: إرشاد العقل السليم: ٢/ ١٤٤ .

هذا المسلك أبو السعود ومن المعاصرين سيد قطب ، وفي هذا دعوة إلى دراسة فنية للقرآن المكي والمدني وعدم الاقتصار على الأول ، إذ يخيّل لبعض المعاصرين بروز الجانب الجمالي في المكي خصوصاً.

وهنا يحضرنا قول الحق عند الدكتور نعيم الحمصي: «إن القرآن على الرغم من أنه يتناول أبحاثاً من طبيعتها ألا تُتناول في أسلوب فصيح بليغ ، لأنها تعبّر عن فكرة مجردة ، أو عن واجبات دينية اجتماعية ، فهو يعبر عنها فيما هو الغاية في الجمال والفصاحة»(١).

وهذا مما يحدو بنا على القول إن التشريع الإسلامي يتّسم باتصال الحق بالوجدان في تطبيق هذا التشريع ، وفي أسلوب الحديث عن هذا التشريع ، فليس أحق من النص القرآني بثلاثية الحق والخير والجمال.

ومن هذا القبيل الجانب الخلقي في النهي عن الغيبة ، قال عز وجل: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] ، فقد استخدمت مفردات تدل على غاية القبح والرعب لأجل التنفير من رذيلة الغيبة ، إنها حسية بشعة تجسم الأسود النفسي المتوحش.

فقد جاء «التصوير هنا مجسداً لسلوك اجتماعي له آثاره النفسية الخطرة على الفرد والمجتمع... وهذا الهرب المرتجف من بشاعة المنظر هو في الحقيقة نضال التسامي الناتج عن الإحساس بخطورة الغيبة»(٢).

وثمة علامة بين الأكل الوحشي هنا والغيبة التي هي تمزيق أعراض ، وكلاهما قبيح مقزز يقول الشيخ عبد الله سراج الدين رحمه الله: «وفي هذا حَمْل لكل عاقل على الإقرار بكراهية ذلك قطعاً ، وعدم المحبة والميل

---

(١) تاريخ فكرة الإعجاز ، د. نعيم الحمصي ، ص/ ٢٩.
(٢) الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم ، د. محمد عبد الواحد حجازي ، ص/ ٨١.

لذلك ، وإنما كنى عن الغيبة بأكل لحم الإنسان ، وأوعد الذي اغتاب ولم يتب بأكل لحم أخيه ميتاً ، ذلك أن الغيبة فيها ذكر المثالب والمعايب ، وفيها تمزيق الأعراض والطعن فيها ، وهذا مماثل لأكل لحم الإنسان بعد تمزيقه وتقطيعه في كونه مستكرهاً ومستقبحاً في الشرع الحكيم ، وعند أهل العقل السليم والذوق الصحيح ، وقوله تعالى: ﴿ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ [الحجرات: ١٢] وهكذا المغتاب لا يشعر[١].

وثمة إيغال في البشاعة الحسية يتجلى في إيراد كلمة الأخ وإسناد اللحم المأكول إليه ، «وإذا كان لحم الأجنبي مستكرهاً خبيثاً ، فما بالك بأكل لحم الأخ ، فلا شك أنه أشد كراهة وخبثاً ، فإذا أضفت إلى ذلك أنه ميت ، اشتدّ أمر الكراهة وعظم شأنها حتى تتقذّره النفس وتتقيّأ منه ، ومن المألوف أن يكون المغتاب غائباً ، فكان ذلك بمنزلة الميت الذي لا يسمع ولا يعي ما يُتقوّل من الأقاويل»[٢].

ويوازن الزمخشري بين فِعْلَيْ «دمعت» و«تفيض» ، وقد ورد الأخير في قوله عز وجل عن الرهبان: ﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٨٣] ، ويردنا إلى الأصل اللغوي مما يجعلنا نتأمل معه إسهام هذه المفردة والتصوير بالاستعارة ، تلك الكلمة اللامعة في هذا السياق ، لطبيعتها الانزياحية المعبرة.

يقول: «معناه تمتلىء من الدمع حتى تفيضَ ، لأن الفيض أن يمتلىء الإناء أو غيره حتى يطلعَ ما فيه من جوانبه ، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء ، وهو إقامة المسبَّب مكان السبب ، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء ، فجُعلت أعينُهم كأنها تفيض بأنفسها: أي

---

(١) حول تفسير سورة الحجرات ، الشيخ عبد الله سراج الدين ، ص/ ٢١٧.
(٢) القرآن والصورة البيانية ، د. عبد القادر حسين ، ص/ ٢٢٦.

تسيل من الدمع من أجل البكاء ، من قولك : دمعَتْ عينه دَمْعاً»[1] .

وقد يجتمع أكثر من معيار جمالي في رصد جمال المفردة عند الزمخشري فمرة يكون للنفس حظ كبير ، ومرة يفتح بالشرح اللغوي أبواب تملّي الجمال ، فنجد في الآية السابقة إيثار «تفيض» التي تتصل بالمياه الغزيرة المتدفقة ، وكأن جفونهم ينابيع تفيض بالدمع الذي هو دلائل على عمق الإيمان .

فالكثرة في الفيض تعني تجلّي الضخم المعهود لدى النهر في موضع صغير وهو العين ، وهذا يومىء إلى مساحة الإحساس المتسعة عند أولئك الذين يتجاوز إيمانهم حدود الموجودات ، فتكون مشاعرهم عظيمة وعيونهم التي هي مرآة لمشاعرهم أكبر مما يُعهد ، وهو اتساع مريح ، بخلاف اتساعات جهنم التي تفيد الرعب .

ونضيف الكثرة مقصودة لأنها معبرة عن المضمون ، كما أن الفيض يعبر عن استمرار أكثر مما يعبر الامتلاء ، فلا انقطاع في حركة الصورة البصرية ، فالفيض امتلاء بعد امتلاء ، وقد ينقص القدامى في مواضع متعددة الكثير من التخيل ، بيد أن هذا لا يمس الزمخشري إلا قليلاً .

ولا يعني ما سبق أن الزمخشري بمنأى عن المزالق التي تبعد عن المعنى الحقيقي إذ قد يتأثر بمفهوم خاطىء ، وهو يسعى نحو إبراز أهمية المفردة من غير أن يقصد الانزلاق والمساءة ، ومن هذا وقوفه عند بداية سورة المزمل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ١ ـ ٢] .

يقول : «وكان رسول الله ﷺ نائماً بالليل متزمّلاً في قطيفة ، فنبّه ونُودي بما يهجّن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته ،

---

(١) الكشاف : ١/ ٦٣٨ .

واستعداده للاستثقال في النوم كما يفعل من لا يهمّه أمر ، ولا يعنيه شأن»[1].

ويرد عليه أستاذنا الدكتور نور الدين عتر من منطلق لغوي يقوِّم النظرة ، ويحدِّد طابع الدفاع الموضوعي ، ويصحح الدكتور نور تقويم الزمخشري للداعية العظيم رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، إذ يقول: «قيل: المعنى يا أيها الذي زُمِّل أمراً عظيماً هو أمر النبوة ، والزَّمْل: الحَمْل ، ويدل على بطلان فهمه هذا أمور نذكر منها:

١ ـ أن هذا الأسلوب في وصف المخاطب ليس نصاً ولا ظاهراً في إفادة ما زعمه الزمخشري ، فصيرورته إليه تحكم في النص.

٢ ـ أن الذم أو التهجين إنما يتأتّى لمن توجّه إليه الأمر ، ولم يُعطِه الاعتناء اللازم أو الاجتهاد اللازم ، وهو غير وارد هنا ، لأنه لم يَسبِق هذا النداءَ تكليفٌ بقيام الليل ، فعلام التهجين»[2].

فقد أخذ الزمخشري بمعنى المتلحّف بثيابه من كلمة «المزّمّل» ، ولم يأخذ بمعنى حمل أعباء الدعوة التي تُشعر بعلوّ مقام النبوة ، ثم أساء في تمكين هذه الكلمة بوصفه لعدم مبالاة النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم نجد مثل هذه الإشارة إلى التأويل المتعسّف عند من خصّص دراسة لتفسير الزمخشري ، مثل الدكتور مصطفى الجويني أو الدكتور درويش الجندي أو الدكتور محمد أبو موسى ، وهي فائدة لطيفة أتى بها الدكتور نور الدين في هذا المقام.

ويُعنى ضياء الدين بن الأثير بجمال المفردة في كتابه «المثل السائر» ، إلا أن هذا الجمال النابع من دقة الفروق اللغوية ومناسبة المقام لا يحظىٰ

---

(١) الكشاف: ٤/ ٥٠٧.

(٢) في تفسير القرآن الكريم وأسلوبه المعجز. د. نور الدين عتر ، ص/ ١٨٩.

بالكثير من اهتمامه ، فهو إذن لا يقدم معايير واضحة مما أذن له بتطلعات فردية تحتاج إلى تفسير على الأغلب.

ويعود السبب إلى انشغاله الكبير بالجمال الموسيقي ، وجمال الصيغ والتركيب الداخلي للمفردات ، أو دعي عند السابقين بالفصاحة ، فإذا أُعجب بوجود كلمة في القرآن الكريم ، واستقبح وجودها في الشعر ، فإن هذا يعود إلى إيقاع الآية ، وموقع الكلمة في هذا الإيقاع ، ونغمة حروفها.

وإذا أنعمنا النظر في كتابه ألفينا أن معيار الذوق هو الذي يفرّق فيقبل ويرفض ، وهو ذوق سليم مرتبط بالفطرة ، ومن هذا وقوفه عند الفرق بين البطن والجوف في الآية الكريمة: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] ، والآية الكريمة على لسان أم مريم عليها السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

يقول ضياء الدين: «ومن الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار ، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ ، فيضعها في موضعها ، ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد ، وكلاهما حسن في الاستعمال ، وهما على وزن واحد ، وعِدَة واحدة ، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في موضع تُستعمل فيه هذه ، بل يُفرَّق بينهما في مواضع السبك ، وهذا لا يدركه إلا من دَقّ فهمه ، وجَلّ نظره ، فاستعمل الجوف في الأولى ، والبطن في الثانية ، ولم يستعمل الجوفَ موضع البطن ، ولا البطن موضعَ الجوف ، واللفظتان سواء في الدلالة ، وهما ثلاثيتان في عدد واحد ، ووزنُهما واحد أيضاً ، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف يفعل»[1].

---

(١) المثل السائر: ١/ ١٤٣.

نلحظ إذن أن الجانب الموسيقي يطغى على إحساس ابن الأثير بالفروق اللغوية ، فإذا كان قد تحدّث فيما سبق عن الخفة والعذوبة ولذة السمع وسهولة النطق وغير هذا ، فإنه هنا يحتج بشكلية المفردات ، فيعُدّ الحروف ، وينتبه إلى الوزن ، ثم يعود إلى الذوق وكأنه يريد أن الاستعمال القرآني وجود لا يُفسَّر ، وينبغي أن يُتَّبع .

ويبدو لنا أن الأمر يعود إلى الدلالة الإيحائية في الشاهدين السابقين ، وذلك أن مادة كل منهما تختلف كل الاختلاف عن مادة اللفظة الأخرى ، ولها حيز ذهني خاص ، فمادة «الجوف» تُوحي بالضمور والخلو والانحسار والعمق ، خصوصاً بما يرسمه حرف الجيم ، وبعدَه حرف الواو الساكن ، ثم حرف الفاء الذي تنضم عنده الشفاه من دلالة إيحائية تناسب العالم الشعوري الخفي عند الإنسان .

وذلك على عكس «البطن» التي توحي بالنتوء والبروز والانكشاف ، وهي أنسب للحامل من مادة «الجوف» ، فالجنين المكنّى عنه بقوله تعالى على لسان أم مريم عليها السلام «ما في بطني» يناسبه كثيراً النتوء والبروز والانكشاف ، مثلما هي حال الحامل ، وتبعاً لذلك استحق السياق مفردة «بطن» لا «جوف»(١) .

ولقد اطّرد استعمال البطن للحامل في القرآن الكريم ، كما في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم : ٣١] ، وفي تصوير أجواف الكفار قال تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان : ٤٣ ـ ٤٦] ، والمهل ما يبقى من أسفل الزيت ، أما الحميم فهو الماء الحار ، فتعبر الكلمة عن الانكشاف بعد كثرة الأكل ، إنه امتلاء الآكل بالطعام ، وتذكيره بنَهَمه في

(١) مقالة : جماليات المفردة القرآنية عند ضياء الدين ، د. عيسى العاكوب ، ص/ ٢٩ .

الحياة الدنيا ، فللكلمة هنا إشارة إلى المستوى البهيمي عند الكافرين.

وقرين هذا الفرق بين «طحاها» و«دحاها» في قوله عز وجل مما يدل على أن التغيير الصوتي تابع لمناسبة المقام.

يقول الدكتور تمام حسان: «لو نظرنا إلى الفرق بين السياقين لوجدنا في سورة النازعات سياق إثبات مجرد ، وما في سورة الشمس سياق قسم ، ولا شك أن في القسم تأكيداً ليس له مثيل في الإثبات ، فإذا سلّمنا بهذا الفرق بين السياقين أدركنا أن التفخيم الذي في «طحاها» جاء لمناسبة ما في القسم من تأكيد ، بل إنه جاء ليضيف إلى القسم فضل تأكيد ، أي ليدل على مبالغة في إيقاع الحدث ، ومثل ذلك ما نجده في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] ، مقارناً بقوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٧] إذ جاء التفخيم في الأول مع الضم ، وجاء الترقيق في الثانية مع السكون»[1].

ويمكن أن نرقب احتواء المفردة للموقف خير احتواء ، وامتلاك ناصية التأثير أعمق تأثير في مفردات كثيرة دلّ اختيارها على مناسبة المرسل والمتلقي ، منها قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

فالملحوظ في الصورة الصوتية ورود حروف قوية ، فقد وردت الكاف ثماني مرات ، ثلاث مرات منها في كلمة واحدة «كذكركم» واستعيض هنا عن كلمة مثل لشدة المشابهة وشدة القرب بين الطرفين ، إضافة إلى القوة في الوقوف على الميم الساكنة الشفوية أربع مرات «قضيتم» «مناسككم» «كذكركم» «آباءكم» ، كل هذا لتعميق أثر الذكر ومجاهدة النفس.

والكلمة التي نقف عندها «أشدّ» ولم يقل أكثر ، حيث لم يطلب

---

(١) البيان في روائع القرآن ، د. تمام حسان ، ص/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

الكم ، بل طلبت الكيفية ، لأن هذا مناسب لشدة التعلق بالآباء والمشقات التي يتكبدها العربي في الحرص على المفاخرة بالآباء والأجداد ، فكلمة «أشد» تومىء إلى مظاهر حسية يدركونها في واقعهم العربي.

كذلك تتجلى المظاهر الحسية في كلمة «أكبر» من قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] فقد وصف الإثم بالكبر ، ولهذا التوصيف توظيف نفسي ، يجعل المؤمن ينفر من حب جمع المال وتراكمه ما دام هذا الإثم يتجلى متراكماً لهذه الأموال ، وكذلك قوله «أكبر» ، لأن منافع التجارة كثيرة فقدم لهم الإثم جسماً محسوساً يُخشى من كبره وتغطيته للنفس.

هذا التنفير واقعي يقتلع الجريمة من جذورها ، وإن التعبير أعمق أثراً من وصف الإثم بالعظيم وأعظم ، لأن هاتين المفردتين تبقيان في نطاق الذهن ، ولا تنفذان إلى النفس عن طريق الحواس ، فتهيمن على النفس وتستجلب الحواس التي تملك ذاكرة لعبوره.

ومن الواقع المجرب والمشاهدات المعهودة كلمة «حرب» من قوله عز وجل عن فاحشة الربا: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] ، وهي آخر ما نزل في الربا ، ولم يذكر العقاب وتجلياته الغيبية هنا ، لأن للحرب وقعاً عميق الأثر على النفس ، إذ جرّبوا أهوالها والحرب تعني القطيعة ، وتعني المواجهة العنيفة والاستعداد من الطرف الآخر ، وهذا يومىء إلى كون الربا يفسخ المجتمع ويقضي على أواصره ، وفيه إيماءة إلى الانشغال بالجهاد للحصول على المغانم ، بدلاً من قطع رقاب المؤمنين بتزايد الديون ، وهي «حرب» في حال تنكير إيغالاً في تهويلها ، حتى لا يحيط بها ذهن إن تجلت حرباً معنوية وإن تجلت حرباً حسية ، لأنها «حرب من الله» الخالق لا المخلوق.

وهكذا تخرج الكلمة عن نطاقها المعجمي محملة بفضاءات متعددة من جرّاء بُعْدِها الديني الغيبي ، وليس هذا كوصف الآلهة وصراعهم في الإلياذة وسائر أساطير اليونان ، لأن الوصف هناك سفَّه هذه الآلهة و«أَنْسَنَها» إن صح التعبير.

وفي سورة يوسف تتكرر كلمة السجن تبعاً لمقتضيات محنة يوسف عليه السلام ، إذ وردت ستَّ مرات فيها.

والملحوظ أنه أضيف الصاحبان إلى السجن مرتين في هذه السورة على لسان يوسف عليه السلام ، فالآية الكريمة تقول: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

فالتركيز على صحبة السجن إبراز للمحنة والضعف البشري ، ومحدودية الجدران تومىء إلى محدودية الحياة الدنيا ، جاء في الحديث النبوي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١) فلا بد من الاعتبار والنزوع إلى المطلق الذي لا يكون إلا مع الواحد القهار وقد وصفه بالقهر ، لإبراز قوته فوق قوة السجان والملك كما في الآية: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ولعل لهذه المفردة بُعْداً نفسياً آخر ، إذ توحي إلى إحاطة زوجة العزيز بيوسف عليه السلام وتغليقها الأبواب ، فكانت سجناً له تخلَّص منه إلى هذا السجن الخالي من الخطيئة ، وفي التعبير بالسجن إشعار بالضيق النفسي الذي يشعر به يوسف عليه السلام ، وإشعار بتواضعه إزاء المسجونين ، فكلهم سواء ، مجرم في نظر القانون ، ولعله يعبر من هذه

---

(١) مسلم ، الزهد ح (٢٩٢٦) ، والترمذي ، الزهد ح (٢٣٢٥) ، وابن ماجه ، الزهد ح (٤١١٣) ، ومسند أحمد: ٢/ ٣٢٣.

المفردة إلى نفسيهما فيستميلهما إلى اتباع الحق.

كنا قد تكلمنا على مناسبة الفروق للسياق في الفصل الأول، وههنا نؤكد هذا من خلال نماذج مقبوسة من عند الزركشي الذي كان ينفي الترادف قائلاً: «على المفسّر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الترادف ما أمكن فمن ذلك الخوف والخشية لا يكاد اللغوي يفرّق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف، وهي أشدّ الخوف، فإنها مأخوذة من قولهم: شجرة خَشِيّة، إذا كانت يابسة، وذلك فَوات بالكلية، والخوف من قولهم: ناقة خَوفاء، إذا كان بها داء، وذلك نقص، وليس بفوات، ومن ثمة خُصَّت الخشية بالله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١](1)».

وهذا الجنوح إلى الأصل الحسي للمفردة قبل الاصطلاح الذهني المجرد مستفاد من سفر الراغب الأصفهاني «المفردات في غريب القرآن» الذي وضعه في القرن الخامس الهجري وردّ فيه الكلمات القرآنية إلى أصولها الحسية وهو صنيع الزمخشري في «أساس البلاغة»، فثمة فرق بين العدم والنقص أدى إلى الفرق بين الخشية والخوف، ولكن نفيد هنا في هذه الآية على وجه الخصوص أن اقتران الذات الإلهية بالخشية واقتران لسوء العذاب بالخوف، دليل على أن خوف الإنسان من الخالق أكبر من الخوف من مخلوقاته، لأن عند الله ما هو غير محدود من ثواب وعقاب، كما أن الفرح بلقاء الله أعمق من الفرح بعطاءاته المخلوقة، فالنفس تنزع إلى غير المحدود وترغب فيه، وتخشى غير المحدود وترغب عنه أكثر من غيره.

وكأنما أراد الزركشي أن يربط بين الطابع الحسي في الصل، وبين

---

(١) البرهان: ٤/ ٩٣، وانظر: معترك الأقران للسيوطي: ٣/ ٦٠٢.

مقدار التأثير في الاصطلاح الذهني الجديد ، فتوصل إلى أن مخزون الخشية أعظم .

وقلّما يعود الباحث المعاصر إلى الأصل الحسي ، فلا يحكّم الدكتور شوقي ضيف معيار اللغة في التفريق بين الخشية والخوف في الشاهد السابق ، إذ يقول: «الخشية خوف ممزوج بتعظيم وإجلال ، فهي أخصّ من الخوف ، إذ الخوف توقّع العقوبة ، والخشية انقباض وهيبة وسكون إلى الله بعمل الطاعات ، وإخلاص واعتصام به من خوف عذابه»(١) .

ولا يفهم من الكلام السابق أن الخشية قد اطرد ذكرها متعلقاً بالله ، كما تعلق الخوف بغيره ، فالحق أن الزركشي دأب دائماً في استدراك الأمور كيلا يصل إلى تعميم مغلوط ، خصوصاً إذا تذكر المتلقي قوله عز وجل: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠] .

ويعلّل الزركشي قائلاً: «الخاشي من الله بالنسبة إلى عظمة الله ضعيف ، فيصحّ أن يقول: يخشى ربه لعظمته ، ويخاف ربه ، أي لضعفه بالنسبة إلى الله تعالى ، وفيه لطيفة ، وهي أن الله لما ذكر الملائكة وهم أقوياء ، ذكر صفتهم بين يديه ، فبيّن أنهم عند الله ضعفاء ، ولمّا ذكر المؤمنين من الناس وهم ضعفاء ، لا حاجة إلى بيان ضعفهم ، ذكر ما يدلّ على عظمة الله تعالى»(٢) .

ولكن لابد من التذكير بأن الله عز وجل قال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ، فلا يقتصر الخوف على الملائكة الأقوياء من مخلوقات الله .

ويعد كتاب البرهان للزركشي أفضل الدراسات القرآنية القديمة التي

---

(١) سورة الرحمن وسور قصار ، د. شوقي ضيف ، ص/ ١٩٥ .
(٢) البرهان: ٤/ ٩٤ .

تتحدث عن الفروق اللغوية ، مع أنه كتاب شامل في علوم القرآن ، لا في الفروق ولا في الإعجاز ، إذ تبرز دقة الباحث في هذا الكتاب وشموله لما بُظِنّ فيه الترادف في القرآن الكريم ، فقد بسط الفرق ببراعة بين الطريق والسبيل ، وبين التمام والكمال ، وبين أتى وجاء وغير هذا ، وقد نقل السيوطي شواهده في «معترك الأقران في إعجاز القرآن» ، مما مهّد السبيل لبحث الدكتور عائشة عبد الرحمن.

وهو لا ينكر فضل سابقه أبي هلال العسكري في هذا المضمار ، كما لا ينكر إشارات الزمخشري في تفسيره النفيس «الكشاف» وإن كان الأخير لا يستطلع الشمول والاستقراء.

وقال الزركشي عن الفرق بين العمل والفعل: «والفرق بينهما أن العمل أخصّ من الفعل ، كل عمل فعل ، ولا ينعكس ، ولهذا جعل النحاة الفعل في مقابلة الاسم ، لأنه أعمّ ، والعمل من الفعل ما كان مع امتداد ، لأنه «فَعِل» وباب «فعل» لما تكرر ، وقد اعتبره الله تعالى ، فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: ١٣] ، حيث كان فعلهم بزمان ، وقال: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾ [النحل: ٥٠] حيث كانوا ـ أي الملائكة ـ يأتون بما يؤمرون في طَرْفة عين ، فينقلون المدن بأسرع من أن يقوم القائم من مكانه ، وقال تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] ، فإن خلق الأنعام والثمار والزروع بامتداد ، وقال: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] ، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] ، فإنها إهلاكات وقعت من غير بطء»(١).

إنه يشير إلى دقة الزمن المطلوب في كل من الدلالتين فعل وعمل ، ولم يكن هنا أساسه الجمالي من الموروث اللغوي ، بل برهن على اطراد

---

(١) البرهان: ٤/ ٩٨ ، وانظر: معترك الأقران للسيوطي: ٣/ ٦٠٤.

هذا الاستعمال في القرآن الكريم ، فلا حجة من المعجم ، بل هو سياق خاص يحدّد معالم الفعل المستعمل وحيّزه الزمني.

ولا يتأثر الزركشي بسلفه الخطابي الذي رأى خصوصة «فَعَل» بالعقوبات ، وقد اختص «فعل» أيضاً بالأفعال القبيحة من البشر كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣] ، وقوله عز وجل: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٩].

وهكذا دلّنا الزركشي إلى أن «فعل» إذا نسب إلى الله فإنه يتسم بالسرعة والقوة ، ولا يقتصر الأمر على معنى العقوبة كما مرّ بنا في الفصل الأول من كلام الخطابي[١] إذ يقول عز وجل: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ، وكل مظاهر القيامة المروّعة تتسم بالسرعة والقوة.

مَنْ يُطالعْ أسفار الدارسين القدامى يَجدْ أن هذه المادةَ أي ـ مناسبة المقام ـ وفيرةٌ ، وذلك لأسباب عِدة ، وهي أنهم ناضَلوا بإخلاص جاهدينَ للرّدِّ على المَلاحِدَةِ الذين يَدَّعون التناقض في القرآن الكريم ، والخَطَلَ في استعمال مفرداته ، فكان لابُدَّ من تبيين سبَب ذكر الانبجاس في موضع ، والانفجار في موضع آخَرَ وعِلَّة تقديم موسى على هارون في موضع ، وهارون على موسى في موضع آخر عليهما السلام.

ويُضاف إلى هذه الغاية الدينية الخالصة مَحبَّتُهم العميقة لأسلوب كتاب دُنياهم وآخرتهم ، فمنه استلهموا أُسسَ حياتهم ، وأرسوا قواعدَ مجدهم ، وهذا مما حَدا بهم على إبراز جماليات دقة الاختيار في الكتاب المعجز.

---

(١) انظر: ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص/ ٥٣.

ومن هذه الأسباب وفرة الثروة اللغوية ، فأكثرهم لُغويّ مُتَمَعِّن ، كما يظهر في مناقشاتهم ، ومنهم من كان ذا مكانة كبيرة في اللغة كالزمخشري والسُّيوطي .

ومن هذه الأسباب أيضاً قُربُ عهدهم بزمن الفصاحة ، لذلك وجد المعاصرون الكفايةَ في كتب أسلافهم ، وأكثرُ من اهْتَمَّ بالفروق عائشةُ عبد الرحمن ، وقد ذكرنا نُـتَفاً من كتابَـيْها في الفصل الأول ، حيث كانت تَنْفي وجودَ الترادف في القرآن وتُقِـرُّ به في اللغة .

ووَقَفات المعاصرين على قلتها تَتَّسم بالغِنى والعمق ، وهي لا تأتي تحت عنوان مُعَـيَّن ، فهذه الجمالية لم تكن تحت عنوان ائتلاف اللفظ والمعنى ، أو مُشاكلة اللفظ للمعنى ، أو الفروق اللغوية ، أو مراعاة النظير ، شأن القدامى ، إن هي إلا نظرات فنية تَستوفي الأبعاد النفسية ، وهي التي لم يُهْمِلْها أسلافنا في الغالب ، إلا أنه يؤخذ على الباحث المعاصر الاكتفاء بالذات الشاعرة ، وهذا كثير في أسلوب سيد قطب .

ومن الواضح الجَلِي الذي يدل على العمق النفسي ما يرد في كتب الدكتور نور الدين عتر على اختلاف مناهجها ومقاصدها ، وقد قَدَّم شَذَراتٍ رائعةً في تفسيره لبعض السُّور ، وفي قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان : ١٤] يَدُلنا على جمال الفرق ، إذ يقول «فعبَّر بكلمة «وَوَصَّيْنَا» بَدَلاً من أمرنا ، إشعاراً بأنَّ المسألة مَفْروغٌ منها تحتاج إلى تحريك النفس نحْوَها ، لا إلى الإلْزامِ»[(١)] .

وبهذه الطريقة السامية يقرِّر القرآن الكريم أحكامه الشرعية ، فقد أحاط بالإلزام رِفْعَةُ المخاطبة مع بعث الرحمة في التوصية ، وهذه فائدة لطيفة أتى بها الدكتور نور الدين في هذا المقام .

---

(١) في تفسير القرآن الكريم وأسلوبه المعجز ، د. نور الدين عتر ، ص/ ٧٧ .

ونرى أن دراسة الدكتورة عائشة عبد الرحمن تتسم بالموضوعية الواضحة ، ولأنها تنطلق من الأصل اللغوي في استعمال العرب ، وترصد استخدام الكلمة المدروسة في القرآن كلِّه ، ومن ثَمَّ تَفْرَغُ للدلائل النفسية التي تَـبُـثُّها المفردة المنتقاة من بين مرادفاتها ، وهذا لم يَبْعُد عن ذِهن الزركشي وغيره.

ب ـ ظلال الدلالة الخاصة :

قد تكون الكلمة عادية في استعمالنا ، فإذا قرأناها في الآيات القرآنية وجدنا أنها تتجاوز كل تعابيرنا ولكن تجاوز الموجود هذا ، لا ينفي تمكّن الكلمة القرآنية من موقعها بحيث تظل مقنعة ممتعة ، وتكون بمنزلة اللبنة المطلوبة للبناء الكلي.

من البدهي أن أدبية الأدب أن تُضخ المفردات معالم زخّارة لا تكون خارج سياقها ، فقد يطرأ تقليص على الدلالة أو يطرأ اتساع ، أو تطرأ مغايرة تتجاوز الحيز المعجمي ، وقد ترتبط جمالية المفردة بمجرد مصدرها ، فللذات المبدعة أثر في توقع المتلقي ، فلا يفصل بين فاعلية الكلمة في النص ونص آخر من حيث اختلاف المبدعين ماهية وفاعلية[١] .

ولعل منشأ هذه الخصوصية أن الحيِّز الزَّمَـكاني للمفردة يكون بحجم معروف في المعجم، أما في النص الأدبي، فتكتسي الكلمة عناصر تصويرية تستمد قوتها من الموقف المصوّر وفرادته ، ويمكن تلمس هذا في مفردات القرآن الكريم، إذا ربطنا في تجليها في عالم الشهود بعالم الغيب.

وهكذا «تنفخ الصورة حياة جديدة في الكلمة ، فتبعثها من عالم الأموات حيث كانت مدفونة ومكفَّنة بمعانيها الاصطلاحية خلال قرون من الزمن ، فتردّها الصورة إلى الطفولة وتسكنها المفاجأة والدهشة ، وتفر

(١) راجع مثلاً : الكتابة والتناسخ ، د. عبد الفتاح كيليطو ، ص/ ١٤ ـ ١٥ .

مدلولاتها من الجوامد فرار ذوات الجناح . . تتجه اللفظة بعد ذلك ، وبعد أن تكون قد تحررت من كل أعباء الماضي نحو المطلق اللانهائي ، فتكتسب عدداً لا متناهياً من المعاني والمدلولات ، ولكن دون أن تكون رهينة أي معنى بمفرده ، وتصبح نقطة انطلاق للنفس ، وليس نقطة وصول للعقل»[1] .

فثمة معنى عقلي ومعنى نفسي للمفردة ، وهذا ما أذن لهنري تشارلتن أن يقول عن الألفاظ : بأن لها «من قوة تعبيرية ، بحيث يؤدّىٰ بها فضلاً عن معانيها العقلية كل ما تحمله في أحشائها من صور مدخّرة ومشاعر كامنة ، لفَّتْ نَفْسَها لفّاً حول ذلك المعنى العقلي»[2] .

ويمكن أن نفسّر ما سبق بالنظر إلى الحيثيات الجديدة التي اكتسى بها فعل «أخذ» من قوله عز وجل في خطاب بني إسرائيل : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

فالفعل أخذ يتجاوز ما نعهده في معناه العقلي ، لأنه هنا قوة صوتية أو نارية ، وهي قوة هائلة ذات فاعلية غيبية ، إذ مصدرها الخالق عز وجل ، وهكذا يغدو هؤلاء الخاطئون قطعاً ضئيلة في يد الصيحة أو النار فتقتلهم ، وهم يشاهدون عناصر هذه الحركة الخارقة .

ويمكن أن نطلق على هذه المعاني الجديدة اسم connatations أي المعاني الحافة ، وهي كثيرة الورود في القرآن الكريم ، لعنايته الفائقة بالتصوير وفق وسائل متعددة ، ما دامت القوة التصويرية تنزاح بالمفردة عن أصلها ، ولكون القرآن الكريم كلام الله الذي يحكي فيه أفعاله

---

(١) دراسات فنية في التعبير القرآني ، د. صبحي البستاني ، ص/ ٣٠ ـ ٣١ ، وانظر : ملامح الأدب العربي الحديث ، غطاس كرم ، ص/ ٩٩ .

(٢) فنون الأدب ، هنري تشارلتن ، ص/ ٧٦ .

وتصرّفاته في الموجودات بغير ما نعهد ، فلا تظل المفردة معجمية حرفية .

وقد قال لاسل آبركرمبي : «المعنى الذي نجده في معاجم اللغة ما هو إلا النواة التي يتجمع حولها طائفة من المعاني الثانوية ، فالنواة تدل على شيء أو حدث ما ، وأما المعاني الثانوية فتدل على النواحي المتعددة المتنوعة لذلك الشيء أو الحدث ، وكثير من المهارة الأدبية عبارة عن إطلاق تلك المعاني الثانوية ، لتؤثر تأثيرها في الخيال»(١) .

وقد وقف الدكتور محمد حسين علي الصغير عندما سماه بالدلالة الهامشية ومن شواهده كلمة «ثابت» في قوله عز وجل : ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم : ٢٤] ولكنه لم يوفق في إبراز هذا المصطلح إذ قال : «فيها دلالة هامشية بالكناية عن علو الشجرة ورفعتها وسموها ، وتأكيد لرسوخ الأصل ، لأن الأصل إذا رسخ ارتفع الفرع»(٢) .

ولن نقف في هذه الفقرة عند الفروق اللغوية ، إنما سنذكر بعض المفردات التي كانت لها إشعاعات خاصة من خلال السياق الذي يحتويها ، بحيث لا يسد مسدّها غيرها في المكان ، فتتفرّد بمكانها من حيث ملاءمة أقصى التأثير ، ولن نبخس ما ورد عند الدارسين القدامى في هذا الشأن . ولذلك سنأتي على ذكر نماذج من تطلعاتهم النفسية الفنية .

قال عز وجل في وصف أعمال الكافرين ، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور : ٣٩] ، وكانت للرماني أولى الملحوظات الفنية ، إنه ينظر في استكمال عناصر الصورة في المشبه به قائلاً : «ولو قيل يحسبه الرائي ماء ، ثم يظهر على خلاف ما قُدِّر لكان بليغاً ، وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمآن أشدّ حرصاً عليه ، وتعلّق قلب به»(٣) .

---

(١) قواعد النقد ، لاسل آبركرمبي ، ص/ ٤٠ .

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآنية ، د. محمد حسين علي الصغير ، ص/ ٢٨٣ .

(٣) ثلاث رسائل في الإعجاز ، ص/ ٧٥ .

وهكذا لا يكتفي الرماني بجمال التشبيه الحسي الذي حقق التجسيم ، بل يؤكد لنا إحكام الصورة البصرية بما يؤثر تأثيراً حسياً هو أعلق بحاسة الذوق عند المتلقي ، ومن الواضح عدم الترادف بين الظمآن والرائي ، وإن الميل إلى الحسية يؤكد الحد الأقصى من التأثير في الإنسان ، لأن أقوى متطلباته تتعلق بالحسية.

ولكن يبدو لنا أن الظمآن تكتسي بملامح ذهنية ، وتمزج بين الحس والروح ، فإن الظمأ يومىء إلى تطلب المعارف اللازمة للإيمان ، وهي مفقودة في حركة الكافر ، كما أن الظمأ صفة سلبية تقترن بأهل النار ، فالكلمة تذكّر بالعاقبة ، وتؤكد أن ارتواء الروح لا يكون إلا مع الإيمان.

ومن الأوصاف الحسية ما جاء في قوله عز وجل: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ، وقد اقترنت كلمة «غليظ» بالميثاق ثلاث مرات في قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١] عن إمساك الزوجات أو تسريحهن ، وقال تبارك وتعالى عن بني إسرائيل: ﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ١٥٤] ، وقال عز وجل: ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

وتشير كلمة «غليظاً» هنا إلى أهمية الرسالة السماوية وصدق الأنبياء ، وكأنه جسم سميك يعزل أجسام الأبرار وأرواحهم عن الخطيئة ، وكأنه حصن محيط ، كما أن غلظ العذاب مناسب للشعور بوطأته القوية على جسوم الآثمين ، فالانتقال تم من حسية إلى حسية أعمق تأثيراً من المجرد إلى البصري ، إلى الملموس ، لأن الميثاق معنى ذهني ، والغلظ يدل على تأكيده.

ويمكن أن تجد هذا الإيغال الحسي الذي يقدم معالم جديدة للمفردة في قوله عز وجل: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ

﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهُمزة: ٤ ـ ٦] ، فقد عدل البيان الإلهي عن الإحراق إلى التحطيم ، لأن إيلام النار المحطمة أقوى ، ولا يحيط به تصوّر بشري ، كما عدل عن الرؤية إلى الظمأ لعمق الصلة بالجسم ، فصارت الصورة داخلية بعد كونها بصرية خارجية ، وصار في الإمكان توقع المزيد من التأثير مع بروز العالم الداخلي والأعضاء الداخلية.

والجديد في هذه المفردة أنها تقدم معالم فريدة ، لا تتحقق في عالم الأرض فالنار كتلة غير كثيفة ولا تحطم وإن أذابت الحديد في الأرض ، فصارت الكلمة قوة صوتية تشير إلى قساوة قلوب الكفرة وكأنها أحجار تتكسّر مع النار ، بل إن الصيغة «الحطمة» من التحطيم غير معهودة ، مما يواكب طبيعة هذه النار الجديدة ، وهذه الفاعلية، وهذا التحطيم الغريب.

وإذا كان الرماني قد وجد أن هذا ما يتطلبه التأثير الأقوى والجمالية العليا ، وهذا مناسب للموقف ، فإن أبا هلال العسكري يصنّف مثل هذه اللمحة الفنية تحت عنوان «المبالغة» ، وهو ما لا نرتضيه في البلاغة القرآنية كما أسلفنا.

ومن شواهد أبي هلال قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢] ، وقد قال: «ولو قال: تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بياناً حسناً ، وبلاغة كاملة ، وإنما خصّ المرضعة للمبالغة ، لأن المرضعة أشفق على ولدها ، ولمعرفتها بحاجته إليها ، وأشغف به لقربه منها ولزومها له»[1].

ونقف عند قوله عز وجل عن أهل الكتاب من اليهود الذين كتموا خبر النبي المبعوث عليه الصلاة والسلام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤] ، وقد عني الشريف الرضي بمجازات القرآن الكريم

---

(١) الصناعتين ، ص/ ٣٦٥.

وتفسيرها من خلال العودة إلى حيز الحقيقة ، ولكنا لا نعدم شذرات رائعة تمثل ذوقاً رفيعاً إزاء بعض المفردات القرآنية ، وعندئذ يتناسى الاصطلاح وتقعيده ، ويتناسى مهمة الإفهام التي تتجلى في نزع قشور الانزياح الفني والوصول إلى لغة حقيقية ولتوصيل النص ، وسنورد كلامه حول كلمة البطون ، ومن ثم نسجل ما نراه من إيحاءات خاصة ومعالم تصويرية لهذه المفردة.

يقول الشريف الرضي: وقوله سبحانه: «في بطونهم» زيادة معنى ، وإن كان كل آكل إنما يأكل في بطنه ، وذلك أفظع سماعاً ، وأشدّ إيجاعاً ، وليس قول الرجل للآخر: إنك تأكل النار مثل قوله: «إنك تأكل النار في بطنك»[(١)].

فالكلمة تتخذ دلالة خاصة وإشعاعاً يدلّ على القبح ، خلافاً لما جاء في الآية الكريمة على لسان امرأة عمران: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

وليس يستيقن عندنا ولا يستساغ أن نقول في عبارة «في بطونهم» زيادة معنى ، كما عبّر الشريف الرضي ، فليس ثمة زيادة ، ما دام المعنى مقيساً باللفظ ، فإذا كانت الزيادة في بناء الكلمة تزيد المعنى ، فإن الزيادة في الجملة أولى ، وليس ثمة زيادة في المعنى ، بل هو المعنى المطلوب ، وكلمة البطون هنا تجسّم فعل الحريق الذي يتم في داخل الكفرة ، بل كأننا أمام هذه البطون المتعددة وهي تمتلىء بالنار.

ولماذا البطون؟ إن هذا يقدم دلالة خاصة إيحائية ، ويعني أن الإصرار على الكتم فيه مكاسب اقتصادية ، كما أن الدعوى إلى الكفر في كل عصر ترتبط بمكاسب دنيوية تتصل بقشور الحياة ، والبطن يرمز إلى لذة الطعام

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، ص/ ١١٩.

والجنس ، فالكفر ليس يطلب لذاته بل لمصالح نفعية ، وهذه حال اليهود الذين ينشرون الكفر بين الناس ليسيطروا عليهم ، إن هذا أكثر ما ينطبق عليهم وهم عبيد الذهب.

وقد وردت كلمة «بطون» بصيغة الجمع سبع مرات في مواقف تصوير العذاب ، ووردت أربع مرات مختصة بالأنعام والنحل ، فلها طابع حيواني قبيح ، مما يدلّ على أن الكلمة في شاهد الشريف توحي بالطبع الحيواني وبشاعته عند من يتاجر بآيات الله ويكذب بها ، وهي تهبط بآدميته ، خصوصاً حين تصوَّر الجشع والنهم ، فالبطن موطن لذائذ سفلى ، بخلاف لذة المعرفة في الرأس.

كما وردت كلمة «الخرطوم في الآية الكريمة: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦] ، والمقصود أَنْف واحد من المشركين قيل: هو الأخنس بن شريق أو الأسود بن عبد يغوث أو الوليد بن المغيرة[١] ، والمهم أنه أنف كبير بحجم خرطوم الفيل ، حتى يبدو أكبر من الوجه منفّراً مقززاً ومرعباً.

والجدير بالذكر أن تصوير القبيح في القرآن الكريم يمتاز بقوة استمرار التأثير وبحسيته الواضحة ، وقد قال جارييت حول وضوح القبيح: «مما يُؤسف له أن الأشياء القبيحة التي نتحاشاها نُدركها بالسهولة التي ندرك بها الأشياء الجميلة»[٢].

وهذا يؤكد كمال إعجاز القرآن الكريم ، لأنه أتى بالجمال الفني من وجوهه كلها الإيجابية والسلبية ، فرسم الجميل والقبيح للحض على الخيرية الجميلة.

وفي كشاف الزمخشري نقع على غزارة الإيحاءات الخاصة والدلالات

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول ، السيوطي ، ص/ ٧٥٣.
(٢) فلسفة الجمال ، جارييت ، ص/ ١٠٨.

النفسية ، وهو يعوِّل على الواقع الملموس ، والتجربة البشرية ، وطبيعة النفس البشرية ، وأحياناً يتخذ المعيار اللغوي حَكَماً ومنطلقاً إلى تأويل جمالي وإشعاع نفسي في المفردة ، بيد أن الجانب النفسي للدلالة الخاصة يستحوذ على جل الاهتمام في أغلب لمحات الزمخشري.

ومن شواهده ما جاء في تفسيره للآية الكريمة: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، ويقف عند كلمة الغمام وجمالها عند يحكِّم طبع الإحساس بالفُجاءة ، وهذا الحكم يعتمد على طبيعة النفس البشرية.

يقول: «فإن قلتَ: لم يأتيهم العذاب في الغمام؟ قلتُ: لأن الغمام مظنة الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفظع وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يُحتسب كان أغمّ ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يُحتسب ، كان أسرَّ ، فكيف إذا كان الشر من حيث يُحتسب الخير ، ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المُستفظع لمجيئها من حيث يُتوَقّع الغيث ، ومن ثَمة اشتدّ على المتفكرين في كتاب الله قولهُ تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]»[١].

ويرى الدكتور مصطفى الجويني أن «شخصية الزمخشري قد طغى عليها العاطفة الدينية في الأمور الجمالية. . . »[٢].

ويبدو لنا جلياً أن الدين والجمال لا ينفي أحدهما الآخر في الدرس البياني للقرآن الكريم ، كما أن مظاهر الجنة المرسومة في الخطاب الإلهي تعدّ دروساً في دُربة الإحساس الجمالي من حيث إشراك الحواس البشرية

---

(١) الكشاف: ١/ ٣٥٣.

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ، د. مصطفى الجويني ، ص/ ١٨٦.

في تلقُّف الجميل ، وكذلك مظاهر النار وتلقُّف مظاهر القبيح المرعب ، فالجمال والدين يتعاوران البيان القرآني في الكشاف ، والجمال في القرآن الكريم ليس جمالاً يقصد لذاته ، بل هو مسخّر في نهاية الأمر للأغراض الدينية .

ويستشعر الزمخشري حسرة الأم التي تلد الأنثى في قوله عز وجل عن امرأة عمران: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران: ٣٦] ، فالوقفة الجمالية هنا تتوزع حول المفردة ثم تتركز عليها ، وهو شاهد يوضح أكثر ما يكون الدلالة الخاصة الموحية عنده .

يقول: «إن قلت: فلم قالت: إني وضعتها أنثى ، وما أرادت إلى هذا القول؟ قلتُ: قالته تحسُّراً على ما رأت من خيبة رجائها ، وعكس تقديرها ، فتحزنّت إلى ربها»[١] .

أي خرج الكلام من نطاق الإخبار لأن الطرفين على علم بمضمونه ، إنما هي شكوى وحسرة وانكسار ، فقد كانت ترجو أن يكون المولود صبياً ، لكي يخدم بيت الله المقدّس ، وليست الحسرة لمجرد كون المولود أنثى كما كانت الأمور في الجاهلية ، فهي كانت تظن أن الذكر أولى بالنَّذْر من الأنثى ، وإلا فكمال العبودية يمنع من هذه الحسرة ، وهذا ما فات الزمخشري ذكره لأنه ضرورة دينية .

وقد سمى ابن أبي الإصبع هذه الجمالية «فرائد القرآن» ، ويذكر التعريف: «وهو مختص بالفصاحة دون البلاغة ، لأنه عبارة عن إتيان المتكلم في كلامه بلفظة تنزل منزلة الفريدة من حَبّ العَقْد ، وهي الجوهرة التي لا نظير لها ، تدلّ على عِظم فصاحته ، وقوة عارضته ، وجزالة

---

(١) الكشاف: ١/ ٤٢٥ .

منطقة ، وأصالة عربيته ، بحيث تكون هذه اللفظة إذا سقطت من الكلام عزَّت الفصحاءَ غرابتُها»[1].

ويستشهد بالآية الكريمة: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ [غافر: ١٩] ، ولا يبيّن لناسمة هذا التفرد ، فلا يكفينا أن تعرف أن القرآن الكريم استقلّ بهذه الصيغة أو تلك ، فهذا حكم ذاتي غير مقنع ، إنما نريد التوصل إلى الأبعاد الجمالية.

وكذلك يقف عند كلمة «فُزِّع» من قوله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: ٢٣] ، فهو يقول: «فانظر إلى لفظة «فُزِّع» وتأمل غرابة فصاحتها ، لتعلم أن الفكر لا يكاد يقع عليها»[2].

ولعل الأمر يتجاوز الفصاحة التي تدل على الجمال الشكلي ، فإن الأمر يتصل بالمحتوى ، ولعل جمال «خائنة» يكمن في صيغتها على اسم الفاعل ، فهي تدل على الحركة أكثر من الاسم ، وتفيد الكثرة في استمرارها ، ثم هي من الفرادة لكونها تقدم صورة تشخيصية ، إذ يستعار فعل الخيانة للأعين ، فكأنما كثرت الخيانة عند هذا الفاعل حتى صارت العيون منه خائنة بذاتها ، فثمة تجلٍّ من الداخل إلى الخارج في ملامح بشرية نفسية ، فنحن إزاء خائنَيْن: الشخص ذاته والعينين.

ونستطيع تفسير كلام ابن أبي الإصبع حول كلمة «فُزِّع» وغرابة فصاحتها ، بل بلاغتها وهو الأحق ، بأن هذه الكلمة تقدم صورة باطنية ، وقد بني الفعل للمجهول لينشغل المتلقي بالحركة عن مصدرها ، فتزداد حضوراً وكأنّها تصوّر هذا الفزع وقد انتزع بأكمله من قلوب الكافرين تبعاً لإشارة التضعيف على الزاي ، وكأن الفزع يُكشط كشطاً عن جسم

---

(١) بديع القرآن ، ص/ ٢٨٦ ، وانظر كتابه: تحرير التحبير ، ص/ ٤١٥.
(٢) بديع القرآن ، ص/ ٢٨٨ ، وانظر: تحرير التحبير ، ص/ ٤١٨.

محسوس ، كل هذا في عالم المشاعر الباطنية ، ولعل هذا ما يرمي إليه ابن أبي الإصبع ولكنه أجمله بالإعجاب.

وقد قال الدكتور محمد رجب البيومي عن شواهد ابن أبي الإصبع هذه: «فهذا الكلام ـ الفرائد ـ لو ترجم إلى لغة عصرنا ، لترجم عما يسمّيه النقاد باللفظ الموحي ، وما يبعثه في الجملة من الظلال والضواء ، ووقوع ابن أبي الإصبع على هذه الألفاظ والجمل في كتاب الله يدل على ذوق بصير ، ونحن نأخذ عليه أنه أحسن الاختيار ، ولم يأتِ بما يجمُلُ من التحليل»[1].

وقال الله عز وجل: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ، والقَرْء: الحيض أو الطُّهر ، ولا بأس هنا أن نجري موازنة لوعي جمالية التربص بين الزمخشري من القدماء وسيد قطب من المعاصرين ، لنقوّم هذا الوعي الجمالي من خلال الاختلاف.

فيقول الزمخشري حول كلمة «يتربصن»: «إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بما يجب أن يُتلقّى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربّص ، وذلك لأن أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرهن أن يقمعن أنفسهن ، ويَغْلِبْنَها على الطموح ، ويُجبرنها على التربّص»[2].

وفي المفردة ذاتها يقول سيد قطب: «إنه يلقي ظلال الرغبة الدافعة إلى استئناف حياة زوجية جديدة ، رغبة الأنفس التي يدعوهن إلى التربّص بها ، والإمساك بزمامها ، مع التحفّز والتوقّر الذي يصاحب صورة

---

(١) خطوات في التفسير البياني ، د. محمد رجب البيومي ، ص/ ٢٩٥ ، ومقصده في عبارة (يجمُلُ) من الجمال وليس من الإجمال الذي كان عليه ابن أبي الإصبع.

(٢) الكشاف: ١/ ٣٦٥.

التربّص ، وهي حالة طبيعية تُدفع إليها المرأة في أن تُثبت لنفسها ولغيرها ، أن إخفاقها في حياة الزوجية لم يكن لعَجْز فيها أو نقص ، وأنها قادرة على أن تَجْذِبَ رجلاً آخر»[1].

ولكن هذا الشعور بالإنفاق أو الهزيمة النفسية لا يكون في حال موت الزوج ، فقد قال تبارك وتعالى عن الأرامل: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] ، وكان على سيد قطب أن ينتبه إلى هذا النقص ، ويبتعد عن النظرة الجزئية التي لا تراعي الاستقراء ، فما ذكره وليد الإشعاع الذاتي لدى الدارس أو نقول هو خاص بآية المطلقة لا الأرمل.

ولا يكاد يبتعد الدكتور أحمد بدوي قيد شعرة عن منهج سيد قطب الذاتي ، فهو كذلك يترك المعيار الجمالي للنفس والتصور ، ففي الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤] ، يحاول تلمس دلالة خاصة في هذه الآية.

يقول عن فعل «خَلَوْا»: «ترى ما توحي به إلى نفسك من جبن هؤلاء المنافقين الذي لا يستطيعون أن يُظهروا ما تكنّه قلوبهم إلا في خَلوة ، لا يراهم فيها أحد»[2].

ولا بأس أن نعود إلى فعل «أخذ» لنجد خصوصية الإيحاء الديني الذي يقدم فاعلية جديدة لهذا الفعل الذي ورد في مقام التهديد ، إنه فعل عادي إلا أن دلالته تتسع في القرآن الكريم ، ويتغير حجم مفعوله ، وهذا كما في قوله عز وجل: ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف: ١٦٥].

وقد ألمح القاضي أبو بكر الباقلاني إلى هذا الفعل في قوله تبارك

---

(١) في ظلال القرآن ، مج/ ١ : ٢/ ٢٤٥.

(٢) من بلاغة القرآن ، د. أحمد بدوي ، ص/ ٣١.

وتعالى: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ [غافر: ٥]، من خلال افتراض مترادفات تسد مسد هذا الفعل.

فقال: «هل تقع في الحسن موقع قوله «ليأخذوه» كلمة، وهل تقوم مقامَه في الجزالة لفظةٌ، وهل يسدّ مسدَّه في الأصالة نُكتةٌ لو وضع موضع ذلك «ليقتلوه» أو «ليرجموه» أو «لينفوه» أو «ليطردوه» أو «ليهلكوه» أو «ليذلّوه» ونحو هذا ما كان بديعاً ولا بارعاً ولا عجيباً ولا بالغاً»(١).

ويبدو أن الباقلاني قد فهم امتداد دلالة الأخذ واتساع فاعليته الوجودية، فهذا الفعل يدل على غاية العنف خلافاً لسائر أفعال الإجرام التي افترضها، كما يدل على قوة الباطش وسهولة البطش، فالرسول لقمة سائغة، وكأنما تصور المفردة ضآلة حجمه وضخامة حجومهم ووحشيتهم.

ومن هذا أيضاً قوله تبارك وتعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: «وأي تصوير لضآلة شأنهم ونسيانهم أنفسهم أبلغ وأروع من هذه الكلمة»(٢).

وهكذا يتجلى أن الأخذ غاية العنف، لأنه حركة قوية نحو الداخل، فهي تتسم بالثقة والقوة بخلاف القوة الدافعة بالطرد أو النفي أو مجرد الإهلاك، والأخذ قوة كبرى إذن إذا كان من البشر، وهو قوة غير محدودة المعالم إذا كان من الله عز وجل، فله جانب غيبي وهو جمالي لأنه معرفي يتصل بحقيقة الدين.

ففي الآية الأخيرة يسند الفعل القوي إلى الخالق الذي تنصاع له كل الكائنات، فيزداد عنفاً ومساحةً في الترهيب، ولا يستطيع الذهن أن

---

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص/ ١٩٧.
(٢) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص/ ١٧١.

يحيط بكل مساحة هذا الفعل الرامز إلى مصدر العلوّ والهيمنة ، لأنه من عند الخالق ، ففيه يتجلى الهول الأعظم ، على الرغم من أن فعل «أخذ يأخذ» محدود الدلالة في استعمالنا ، كل هذا من القوة الغيبية التي تدخلت في توسيع الدلالة.

ويمكن أن نذكر قوله تبارك وتعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [آل عمران: ١١] ، فالأخذ هنا له تجليات مختلفة وفضاءات متسعة متعددة ، لأنه عبارة عن تغييب شامل معبر عن حقارة شأنهم وضآلة جسومهم رغم تجبرهم وتكبرهم ، وهو أخذ دال على حركة لا نعرف لها اتجاهاً.

ويمكن أن نتلو شواهد أخرى تؤكد ما ذهبنا إليه من خصوصية الأخذ هنا وتعدد دلالاته ومزجه بين الواقع والتصور بين الممكن والمحتمل ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢] وههنا البأساء والضراء وسليتان للأخذ غير القاضي عليهم ، بل إنه حركة شديدة مقطوعة للابتلاء.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] ، ويُلحظ هنا تكرار هذا الفعل القريب الهائل الطاقة «أخْذُ» «أخذ» «أخذه» لتوكيد أنه عنيف مغاير لما يعهدون ، ونتصور معه امّحاء القرى وكأنها بقع كبيرة لا تلبث أن تزول في غير ما جهة.

ومنه أيضاً قوله عز وجل: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢٢] ، ولم ترد هذه الحركة إلا اسماً أو فعلاً ماضياً للدلالة على سرعة الحدث.

ومنها القيام إذا أسند إلى الله عز شأنه اتسعت الصورة أمام الذهن والبصر ، وامتزجت الأخيلة بالوقائع ، وذلك لشِياتٍ غيبية متصلة

بالفعل ، وهو ليس كقيام أحدنا ولا قيام الأنبياء ، كل هذا ليس كما في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] ، هذه القيومية جلالية تنزاح بجلالها وإشعاعاتها عن النطاق المعجمي ، وهذا بخلاف التعبير المعجمي : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] فهنا قيام معهود ذو دلالة مرئية .

وقد يكون هذا على سبيل الاستعارة كما في قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] ، فالأكل مجازي وقد تكون الاستحواذ عليها باليد والورق ، لكن الأكل هنا يؤكد الطبع البهيمي للعصاة الذين يعيشون كالحيوانات ، فهو أكل ولكن المأكول مما لا يدخل الفم عادة ، فهذه غرابة تدل على وحشية العاصي ونفور الإنسانية منه .

وثمة أفعال أخرى تسند إلى الله عز وجل ، فتغدو ذات دلائل ثانوية كثيرة منها الفعل البطولي «ومى» كما في الآية الكريمة : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٧] ، وهي آية واردة بكثرة في كتب المتكلمين ، لأنها تدل على أن الله عز وجل يخلق الأفعال .

والذي يهمنا أن فعل «رمى» يتجلى من حيث نهاية الهدف ، نهاية الحركة ، ويبقى مبدأ الرمي غيبياً يثير التصورات الكثيرة ، إنه الغيب يتجلى في فعل بشري ، هذا التجلي يكسب الرمي المعهود صفات جديدة جلالية خاصة بالمقام العالي .

ومنه الإطعام الذي نتصور فيه جلب الطعام والأيدي والأفواه مما هو معهود ، جاء في الآية الكريمة : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٤] ، ولا شك أن المقصود خلق مسببات الإطعام ، ولكن فعل «يطعم» فيه دلالة كبرى على التكريم والإنعام .

وإطلاق كلمة نفس على الخالق عز وجل تحمل دلائل أخرى غير دلائل النفس البشرية ، جاء في الآية الكريمة : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ، فالكلمة هنا تدل على المواجهة والقصد إلى العقوبة ، وهي مرهبة لما يعرف من نطاقها المعجمي من علائم قوة .

وعلى لسان عيسى عيه السلام : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦] وهي آية من شواهد المتشابه القرآني ، ويبدو أنها تدل على حب التقرب من الذات الإلهية ، وإن كانت تؤول بالقدرة والمعرفة وغير هذا ، لكن أنطقها الله لسان بنيه ليبين حبه والصعود في هذا الحب .

وفعل الإحاطة من الله عز وجل لا يعني إحاطة جسمية ، إذ لا يجوز هذا عليه ، أما قوله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج: ٢٠] فإنه تقريب للأذهان بإحاطة القدرة الإلهية وتجلياتها المتنوعة في عالم الشهود ، وليست تعني إحاطة فرسان قبيلة بقبيلة أخرى ، ولكن مع هذا نتصور شيئاً عجيباً يتحرك داخله الإنسان وفق دائرة بين الروح والحس .

والفعل «برز» معهودَ الاستعمال والدلالة ، ولكن يخرج عن نطاقه المعجمي وفق الاستباق الزمني الذي تصنعه المعجزة ، وهو فعل قابل للحدوث ، أي قائم على الاحتمال ، قال عز وجل : ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ، فإن هذا لم يحدث ، ولكنه لو حدث لكان حدثاً عجيباً ينقبض فيه الزمن بين الحاضر والمستقبل والله خالق الزمن ، فلابد أن يكون بروزاً ليس كما نعرف من حيث الحيز الزماني والحيز المكاني لكوننا لم نعرف بعد مكان المضجع .

ومن هذا فعل الإتيان واستحضار الناس ليوم الجزاء في قوله عز وجل : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨]. ففي فعل «يأت» قوة في الاستحضار تشتمل على الاستقصاء وضآلة شأن المأتي به ، وتدل على الثقة خصوصاً أن الكلمة تسند إلى

الخالق في صفاته الجلالية ، وأن الفعل جواب شرط يدل على الثقة واليقين ، إنه تجاوز لحدّ المعجم.

وهنا يحضرنا قول «بختين»: «إن احتواء الكلمة لموضوعها فعل معقّد ، ذلك أن أي موضوع مُفْترى عليه ، ومختلف فيه ، مُضاء من جهة ، ومعتم من جهة أخرى بالآراء الاجتماعية المختلفة ، وبكلمات الآخرين»(١).

وفي القرآن الكريم نجد أن الفعل «يذر» مع تصريفاته يرد إحدى وثلاثين مرة ، وثلاث مرات منها يختص فيها الفعل بالخالق عز وجل ، مع أن الدلالة واحدة في المعجم ، وهذا يؤكد السياق الخاص لآيات القرآن الكريم الذي ينفي الترادف ، إذ تصل بنا الآيات إلى دلائل متعددة لمادة واحدة مما عدّوه في الوجوه والنظائر.

فنحن نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] ، فالفعل في هذه الآية «يذرون» يعني مجرد المغادرة والترك ، إذ تقرر الآية الكريمة المدنية مسألة فقهية.

أما قوله تبارك وتعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤] فإن الكلام يعجز عن التعبير عن حدود فاعلية هذه المفردة ، وهولها وهالاتها الغيبية الخاصة ، نتيجة صدورها أمراً من الله عز وجل.

وكذلك قوله عزت أسماؤه: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١] ، وقوله أيضاً: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] ، والآيات الثلاث هذه من السور المكية ، والأخيرتان منها من أوائل نزول الوحي المبارك.

ففي هذا الفعل إثارة كبرى لطاقة التخيل مما يبعده عن المعنى

---

(١) الكلمة في الرواية ، ميخائيل بختين ، ص/ ٣٠.

المعجمي المعهود، وذلك لأنه يثير في الذهن كيفية انفراد القوة المطلقة الخالقة بما خلقت، ويبعث في النفس الرهبة والإجلال، وخصوصاً إذا أعربنا كلمة «وحيداً» حالاً لضمير الياء.

إن الذات الخالقة تستبعد كل مخلوق لتنفر بهذا المتجبر المكذّب، وهو فعل دال على حدث، ولكنه حدث متسع في الذهن، إذ لا نعرف له زماناً يحدد موعد اللقاء، خصوصاً أن الله هو خالق الزمان، وهو حدث لا نعرف له مكاناً، وكل مكان ينصاع لخالقه متى يشاء، ثم كيف يحيط التخيل بلقاء الأزلي بالعابر، إن هذا فوق الطاقة، وفوق نطاق اللغة، فلا بد من قراءة ما قبل أحرف الكلمة وما بعدها مع قراءتها كما يقال اليوم في الدراسات الأدبية عن التأويل وقراءة ما بين الأسطر.

ومن خصوصيات التعبير القرآني وحيثيات الموقف ما جاء في قوله تبارك وتعالى عن بر الوالدين: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وهذا ما تأمله الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي والذي يطالع أبحاثه يقع على مادة وفيرة تدل على رهافة حسه الفني الممزوج بالإرشاد الديني القويم ومعرفته لدلالات المفردات، وذلك لا يقتصر على كتابه «من روائع القرآن» الذي تحدث فيه عن فن البيان القرآني، فنحن الآن مع كتيّب في الدعوة الإسلامية بعنوان «منهج تربوي فريد في القرآن»، ففيه بعض التأملات الدالة على أصالة فنية وتفرّد ذوقي، ونذكر كلامه هنا، لنؤكد أن التطلعات الفنية غير قاصرة على الأدباء، فهي عند المشايخ أيضاً، وهو النهج السوي المبارك عند السلف الصالح. كما أن تلمس الجمال الفني البيان القرآني غير قاصر على الدراسات الأدبية للقرآن الكريم.

يقول: «لو حذفت هذه الكلمة ـ عندك ـ من الآية، لاختفى منها أعظم

عوامل التأثير فيها ، إنها كلمة واحدة ، ولكنها تفيض بشِحنة هائلة من العواطف المثيرة. إذ هي تصوّر للمخاطب حالة والدَيْه ، وقد انتهيا من الضعف والشيخوخة إلى أن غدا كلٌّ منهما يعيش في كنفه ، وفي ظلال عطفه ورعايته ، بعد أن كان هو الذي يعيش في كنفهما ، وفي ظلال عطفهما ورعايتهما»[1].

فهذه الكلمة التي هي ظرف مكان ، تثير كوامن الرحمة في أعماق الإنسان وتسمو به إلى أعلى مراتب البر والإنسانية ، مع أنها كلمة عادية ، إذا اكتسبت هذه الظلال نتيجة وجودها ضمن هذا الموضوع الجليل رعاية الوالدين.

وكذلك يدلنا على إيثار العفو على القِصاص في الإسلام. إذ يلمّح القرآن الكريم إلى سبيل التراحم والعفو مع تقريره لحدود الله ، فعن حدّ القتل قال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

يقول: «وانظر إلى طبيعة هذه الكلمة ـ أخيه ـ وموقعها من الآية ، إنها تذكّر وَلِيَّ المقتول تذكيراً دون أن تأمره ، أو توجهه إلى شيء ، كلمة تحاول بتصويرها العاطفي المباشر أن تذكّر وليّ القصاص بأنه أخ قريب للقاتل ، وأن تُنسيه أنه وليّ للمقتول»[2].

ج ـ الكلمة وغرابة الموقف:

في هذا المجال يمتاز ابن أبي الإصبع بشيء من الإحاطة والنظرة الشمولية ، فلتأكيد استحقاق مفردة ما بالموضع يذكر آيات أخرى ، ليبيّن

---

(١) منهج تربوي فريد في القرآن ، د. البوطي ، ص/ ٧٠.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧١.

أن السياق يتطلب هذه الكلمة هنا ، وتلك هناك ، وهذا ما يلتقي فيه بما جاء في كتاب «درة التنزيل» ، وقد سارت الدكتورة عائشة عبد الرحمن على هذا النهج في عصرنا ، إذ سرد ابن أبي الإصبع الآيات التي ورد فيها كل من الطين والتراب ليبسط الفرق بينهما[1].

وقال تعالى على لسان أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] وحرضاً أي مشرفاً على الهلاك ، وقد ذكر ابن أبي الإصبع هذه الآية في باب ائتلاف اللفظ والمعنى وهو في مفهومنا المعاصر احتواء المفردة موضوعها.

وكان من نظرته الثاقبة ربط الكلمة الغريبة بغرابة الموقف ، وذكر لها شواهد عدة ، يقول: «فإنه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها ، فإن «والله» و«بالله» أكثر استعمالاً ، وأعرف عند الكافّة من «تالله» لمّا كان الفعل الذي جاوز أغرب الصيغ التي هي في بابه ، فإنه «كان» وأخواتها أكثر استعمالاً من «تفتأ» وأعرَفُ عند الكافة ، ولذلك أتى بعدهما بأغرب ألفاظ الهلاك ، وهي لفظة «حَرَضاً» ، ولمّا أراد غير ذلك قال في غير هذا الموضع: «﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [فاطر: ٤٢] ، لمّا كانت جميع هذه الألفاظ مستعملة ، وعلى هذا فقِسْ ، والله أعلم»[2].

فالغرابة تمثّل انسجام مفردة مع ما يجاورها ، ويبدو أن غرابة الموقف تحكّمت في اختيار المفردات الغريبة المعبّرة ، وهي غرابة غير مطلقة ، بل هي نسبية ، وذلك بالإضافة إلى ما قدمته المفردات هنا من النبرة القوية التي تمثل غضبهم واشمئزازهم ، وقد تحدثنا عن جمالية الصوت التي

---

(١) انظر: تحرير التحبير ، ص/ ١٩٤ .

(٢) تحرير التحبير ، ص/ ١٩٥ ، وانظر كتابه: بديع القرآن ، ص/ ١٤٥ ، والبرهان للزركشي: ٣/ ٤٣٣ .

رآها الدكتور عبد الكريم الخطيب في هذا الشاهد.

والجدير بالذكر أن هذه المفردات ذُكرت مرة أخرى في السورة نفسها، فعلى لسانهم يقول عز وجل: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]، والموقفان متشابهان، وورد في السورة: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣] ثم أكّد القرآن الكريم ضجرهم من أبيهم المتعلق بأخيهم ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وفي سورة النحل: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣]، ولعل التاء هنا تفيد القوة في الإخبار وتأكيد الموقف.

وهنالك لفظة «ضيزى» أي جائرة من قوله عز وجل: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢] ويقول ضياء الدين: «وإذا جئنا بلفظة في معنى هذه قلنا: قسمة جائرة أو ظالمة، ولا شك لم يكن النظم هذا كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام»[١].

ويوضع الرافعي هذا الكلام متأملاً احتواء المفردة الغريبة للموقف، فيقول: «وفي القرآن لفظة غريبة، وهي من أغرب ما فيه، وما حسُنت في كلام قطّ إلا في موقعها منه، فكانت غرابة اللفظ أشدّ الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلّها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها الإنكارَ في الأولى، والتهكّمَ في الثانية، وكان هذا التصوير أبلغَ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنّت في موضعها من الفَصْل، ووصفت حالةَ المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس، بهذين المدَّيْن إلى الأسفل والأعلى»[٢].

---

(١) المثل السائر: ١/ ٢٢٩.

(٢) إعجاز القرآن، الرافعي، ص/ ٢٣٠.

وإذا أقمنا موازنة في تلقّي غريب القرآن الكريم ، فإننا نفضّل نظرة الرافعي هنا على نظرة سلفيه ابن الأثير ، وابن أبي الإصبع الذي كان يكتفي بوجهة علمية على الأغلب ، ونظرة الرافعي في تأملات مناسبة المقام علمية وتأملية جمالية معاً.

فكلمة «ضيزى» تجسم بحركاتها حركة المتهكم ، وهذا هو الشاهد الوحيدَ الذي عبَّر فيه الرافعي عن تجسيم الصوت للمعنى.

ومن اللافت للنظر أن الدكتور عبد الفتاح لا شين يقول: «ولا شك أن جائرة أو ظالمة أحسن من ضيزى»[١].

ولكن يبدو لنا أن القرآن الكريم لا ينزع إلا إلى الأجمل ، وأن علم اللغة يحدّد أن الكلام في الأصل واحد بحسب العرف ، فلا يكون الكلامان لمعنى واحد ، كما يبدو أن للكلمة بُعداً آخر ، وهو قصد زيادة الجور النابع أصلاً من نقص العقل ، خصوصاً أن الراغب الأصفهاني يشرحها بكلمة ناقصة[٢] ، فهذا يعني أن عقولهم ناقصة ، إذن فالكلمة فيها تعريض بسفاهة العقول تجاه الذات الإلهية المقدسة ، وليس الأمر لمجرد الغرابة ، وليس لموافقة الفاصلة موسيقياً.

وقد استنكر الدكتور محمد رجب البيومي تأكيد ابن أبي الإصبع لوجود الغريب ، قائلاً: «فما توهّمه المؤلف من الغرابة في الألفاظ لا دليل يؤيّده ، إلا إذا كان لفظ «حرضاً» باعث هذه الغرابة ، واللفظ الواحد لا يُضرب مثلاً لتناسب الألفاظ في الجملة»[٣].

ونحن مع الباحث في سهولة ألفاظ القرآن الكريم وأن غرابتها أمر

---

(١) صفاء الكلمة ، د. عبد الفتاح لاشين ، ص/ ٨١.
(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص/ ٣٠٠.
(٣) خطوات في التفسير البياني ، د. محمد رجب البيومي ، ص/ ٢٧٨.

نسبي، يزيد وينقص بحسب العصر وشيوع الفصاحة في عصر دون عصر، أو فئة دون فئة، وأن دراسة الغريب تاريخية أكثر منها وصفية متعلقة بزمنها.

ومع هذا فقد غابت عن ذهن الدكتور البيومي الغاية الجزئية في هذا الشاهد، وكان يجدر به أن يشيد بنظرة سلفه، بدلاً من قطع العلاقة بين اللفظ والمعنى، بحجة سهولة ألفاظ القرآن الكريم ودورانها على الألسن، ففي الآية السابقة من سورة يوسف كلمات مجلجلة بصوتها، تصور الموقف بدقة فائقة.

وما دامت فقرة الغرابة ضئيلة الحجم عند الدارسين من مثل ابن أبي الإصبع والرافعي، فلابد من بسط بعض الشواهد القرآنية التي تشتمل على لفظ غريب، لنجد بعد هذا مناسبة هذه الغرابة للموقف المحيط باللفظة.

من هذا قوله عز وجل في مخاطبة بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢] ومعنى الكلمة تخاصمتم وتدافعتم، وفي الكلمة من الإدغام أي الدال في التاء ما يصور بالصوت حال التماس والتدافع والشجار، ومناسبة غرابتها لموقفهم العجيب، إذ تنزل المعجزة لبيان القاتل بنطق القتيل.

والتعبير بالخلاق عن انعدام النصيب من الخير، قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فهذه المفردة رُبطت بانقطاع النصيب في الآخرة فقط، وهي قريبة في أصواتها من معاني الخلق ومعاني خَلاقة الثوب، فهذا يعني أنكم تحرصون على الشيء الفاني، والله يخلق لكم في الآخرة الدائم السرمدي، فالكلمة توحي بتضاد بين الخلق والبِلى.

وعبّر عن انتفاء المنفعة بالقِطمير بعد أن بيّن الآيات الكونية الهائلة الحجم الدالة على وجود الخالق ، أي انتقل من كبرى المشاهدات إلى صغراها ، وهي الأثر على نواة التمرة ، أي هو غريب لا يلفت النظر بالنسبة إلى البراهين الجلية.

قال تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣] إذ نرى في الكلمة تذكيراً بالفناء وزوال النعم في الدنيا وزوال الناس ، بوجود التمرة المأكولة.

وعبّر عن إثم آكل مال اليتامى بالحُوب الكلمة الأقل استعمالاً للدلالة على غرابة الموقف ، فاليتيم يستدر العطف ، ولا ينبغي الاستيلاء على مال يتابع به عيشه ، قال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٢] ، حتى بدا هذا الآثم بهذه المفردة غريباً عن النمط المعهود من الشخصيات ، منبوذاً بذنبه الغريب الدال على قسوة.

وقرين هذا عمل المشركين واتخاذ الأولياء من دون الله مما ينافي العقل ، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴾ [الفرقان: ١٨] ، أي خالفوا المعهود والمنطق وكانوا غرباء عن الحقيقة الواضحة كغرابة المفردة في الاستعمال.

وكلمة الكلالة في قوله عز وجل: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ ﴾ [النساء: ١٢] وهي الكلمة الوحيدة المعبرة عن كلّ من كان بلا والد ولا ولد في الوراثة ، وقال: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ ﴾ [النساء: ١٧٦] ولكن نجد أن ندرة هذه

الحال في المجتمع طابقتها كلمة كلالة القليلة الاستعمال ، وليس الأمر كالإثم والحُوب.

وكلمة المهر أو النفقة أشهر من الطَّوْل ، ولكن يذكر الطول ليطابق حال التزوج من الإماء ، فالأساس المعهود التزوّج من الحرائر ، قال عز وجل: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ﴾ [النساء: ٢٥] ، ولعل الطَّوْل يتصل بالطُول وهو قوة فهذا المتزوج فقير ، لا يُظهر طوله أمام الأعيان خاطباً ، وكأنه قصير اليد لفراغها.

وقال عز وجل: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤] ، والنشز المرتفع من الأرض ، وانتقل إلى تعالي المرأة وارتفاعها ورفضها للطاعة ، وتفيد أيضاً النتوء الذي فيه عرق ناشز ، وعلى هذا نفور المرأة كالنتوء في الجلد وهو قبيح ومرعب وهو حال مَرَضية مع ما يرمز إليه من القسوة كما في نتوء الوجنتين.

ونحن نلحظ أن البيان الإلهي عبر بالنشوز وهي كلمة أغرب من مرادفاتها ، وذلك لتعبر هذه المفردة عن غرابة النفور مع علاقة الالتحام بين الرجل والمرأة ، فهما كتلة واحدة جسداً وروحاً وعقلاً ، والذي تعرفه المرأة عن زوجها لا يعرفه غيرها من الواقع الجسدي والنفسي ، فالنفور مع هذا التماهي غريب ناسبته هذه المفردة ، لتوقظ المرأة وتعيدها إلى الجميل والنمطي والثابت والأعمق.

وعبر بالنقير عن العطاء التافه قال عز وجل: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] ، وهو مأخوذ من نقر النواة ، وهي تذكر بالهدوء والصمت في تكديس المال ، حتى يُخشى تسرّب صوت المال ، وكأن الكلمة مع هذا ترقد في قلب الفقير وتذكره بصوت النقود. والكلمة توحي إلى غرابة البخل مع أن اللذائذ زائلة ، والكلمة تذكّر بالفناء ، لأنها

تتصل بالتمرة بعد فنائها ، فلا يبقى منها إلا القاسي غير النافع ، وهي جعبة البخيل والعاصي عموماً.

والاستنكاف هو الامتناع عن الشيء ترفعاً والانقباض والأنفة تجاهه ، وقد عبر به الله عز وجل في الكلام على عيسى عليه السلام ، لغرابة موقفه ، فهو عابد ادّعي معبوداً ، وكذلك الأمر الملائكة قال عز وجل: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢] ، وهكذا عبّر به أيضاً عن ترفع هؤلاء المشركين لصلة أمرهم بعيسى عليه السلام ، وقال في الآية التالية: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٣] لقرب الكلام عليه ، ولعل المقصود من المشركين هنا من كان يؤلّه عيسى عليه السلام.

والشنآن هو البغض ، ولكن اختير الغريب منهما للدلالة على الحال المثالية القليلة الوجود والترفع الشديد مما لا يعهد عادة في التفاعلات الاجتماعية، إذ تنتفي الموضوعية مع العداء ، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ﴾ [المائدة: ٢] ، وقال عز من قائل: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ [المائدة: ٨].

وقال عز وجل بعد تحريم لحم الميتة والخنزير والدم وغيرها قال: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] ، فلم يقل الجوع ، بل خص الواقعة بالمخمصة ، وهي مجاعة تُورث ضمور البطن ، وهذه حال نادرة ، تزداد ندرة مع تطور الحياة ، فالكلمة تزداد غرابة مع ضيق المعجم العربي مع مر الأيام ، كما تزداد ندرة هذا الجوع بانحسار حياة الصحراء.

واستعمل الخَرْق في التعبير عن الادعاء الفاسد ، قال تعالى: ﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] أي حكموا بذلك على سبيل

الخرق ، وهو القطع بقصد الإفساد ، ويتصل هذا بخرق الثوب والرجل الأخرق الغبي، وغرابة المفردة تومىء إلى غرابة هذا الحكم ، لأن الدلائل العقلية والمشاهدات تدل على التوحيد، والبنوة صفة المخلوق لا الخالق، وهذا يفيد أن الإشراك قضية مفسدة للحياة كما يفسد الخَرْق الثوب، والكلمة بعد هذا بأصواتها معبرة عن جلافة التفكير وقسوة الأحكام والتحجّر.

والخَرْص كما يقول المفسرون هو الكذب قال عز وجل: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهو القول عن ظن وتخمين ، والتعبير بالخرص أقل شهرة من الكذب ، وذلك لمناسبة المقام ، وهو افتراض طاعة النبي عليه الصلاة والسلام وهو أفضل البشر لأسوأ البشر وهم الكفرة الذي أغلقوا عقولهم فقالوا بغير علم ، وكذبهم بذكّر بأصل الكلمة المتصل بالتمر ، أي ثمة بدائية وسذاجة في فعلهم ، فضلاً عن صوت الكلمة الشديد بالخاء والراء والصاد مما يعبر عن قسوتهم وطواياهم المتحجرة.

وعبّر عن ارتكاس المنافقين عن الخير بالفعل (مرد) ، قال عز وجل: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ [التوبة: ١٠١] ، فالخيرية في الكثرة والمنافقون قِلّة فناسبهم فعل قليل الاستعمال بالنسبة لمرادفه ، ولكن غرابة الكلمة توقظ الذهن وتستحثه على التخوف من غرابة ومفاجأة في أفعال المنافقين.

وخضوع الظلال غريب عما نعرف من خضوع البشر ، فتمام خضوعها وانقيادها يتصل بالغيب ، ولذلك أتى البيان القرآني بكلمة «داخرون»: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨] ، وهي كلمة تدعو إلى التفكر بهذا الغيب.

وكان موسى عليه السلام النبي الوحيد الذي شدّ أزره بأخيه من بين

الأنبياء ، ولذلك جاءت كلمة «لا تنيا» أي لا تقصرا ولا تفترا ، في قوله عز وجل: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴾ [طه: ٤٢] فالموقف لم يتكرر ، كما أن الكلمة لم تتكرر في القرآن الكريم.

وعبر عن الأوساخ وطول الأظافر والشعر بالتفث في الحج ، قال عز من قائل: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩] ، وللكلمة دلالات ، الأولى أنها تناسب بغرابتها قلة أيام الحج بالنسبة للسنة كلها ، والثانية أن الأوساخ ينبغي أن تظل بعيدة غريبة عن سلوك المؤمن فهو نظيف ، والثالثة أن تعلق اللسان بأطراف الأسنان في نطق الثاء يصور تعلّق الأوساخ ولصوقها بالجسد.

ويعبر عن الهلاك بالتَّبْر ، كما في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أي عَبَدة الأصنام غرباء في فعلهم الشنيع هذا ، فكيف يُعبد الحجر وهو من أجمد ما يكون ، وهو انحراف عن المنهج السوي ، ويمكن أن نقول هذا في انحراف ثمود وعاد وغيرهم ، فقال: ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٩] ، خصوصاً أن وسائل الإهلاك كانت غيبية كالريح والإغراق.

وكذلك يعبر عن الخسران والضياع بالتباب في ذكر ما دبّره فرعون لإبطال رسالة موسى عليه السلام: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٧] ، لأن ما صنعه أمور عجيبة من ادعاء الألوهية ومحاولة الصعود إلى السماء وغير هذا من مكايد ، والكلمة بصوتها حيث تكرار الباء الشفوي ما يعبّر عن قسوة هذا الطاغية ، ولا تكون في كلمة أخرى كالضياع والخسران.

وفي قصة إبراهيم عليه السلام يسجّل الفعل «راغ» للتعبير عن الذهاب خفية والفعل غريب ، كذلك ليناسب غرابة الموقف ، إذ يذهب إلى الأصنام ويخاطبها مستهزئاً بعبادتها ، قال تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا

تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١] كذلك يستخدم الفعل ذاته في السورة ذاتها لضرب الأصنام لصلة الأمر بالغرابة: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، أي استعلاها وحطّمها وهو مشهد غريب عن العابدين المقدسين لهذه الأصنام.

ولعل هذا الفعل ورد معبراً عن ذهابه إلى أهله عليه السلام، للتعبير عن غرابة الضيف، إذ كانوا ملائكة وليسوا ضيوفاً من البشر، خصوصاً أنه استنكر حضورهم وخافهم، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]. هذا العقل لم يستخدم لغير إبراهيم عليه السلام.

وفي السورة ذاتها الصيحة امرأة إبراهيم بالولد، وكانت عجوزاً عقيماً، صاحت صيحة فيها العجب من حالها، وبما أن الأمر متصل بالمعجزة ناسب أن يعبر عن الصيحة بالصرة، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وهكذا نجد أن للغرابة أبعاداً دلالية يوضحها السياق، فإن الأمر يحتاج إلى إمعان في النظر وتأويل في التعبير، حتى يفهم المتلقي أن الغريب لا يقصد لذاته، بل هو عنصر منبّه إلى خصوصية الموقف، فإن هذا النهج قد يقدم أبعاداً جديدة لأهمية المفردة، إن استطاع أن يوظفه الباحث لشأن الجمالية.

وإذا كان الصبح أو الفجر أشهر في الاستعمال اللغوي على الساحة الاجتماعية من دلالة الفلق، أمكننا أن نجد اتساقاً ومطابقة بين الفلق وسياق السورة المذكور فيها، وهذا ما وُفِّق إليه سيد قطب في مطلع تفسير السورة: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، إذ يحدثنا عن انسجام الأضواء في الصورة بكلمة «الفلق» وكأنه نور ذهني يتقدم ذكر الظلمات النفسية من السحر والحسد.

يقول: «الجو كلّه ظلام ورهبة وخفاء وغموض، وهو يستعيذ من هذا

الظلام بالله ، والله رب كل شيء ، فلم يخصصه هنا «برب الفلق»؟ لينسجم مع جو الصورة كلها ، ويشترك فيه ، ولقد كان من المتبادر أن يعوذ من الظلام برب النور ، ولكن الذهن هنا ليس المحكّم ، إنما المحكّم هو حاسة التصوير الدقيقة ، فالنور يكشف الغموض المرهوب . . والفلق يؤدي معنى النور من الوجهة الذهنية ، ثم يتسق مع الجو العام من الوجهة التصويرية»[1] .

ويمكننا أن نقول: إن المحكَّم في كل نظرات سيد قطب هو التصوير الذي أخذ بملاك قلبه ، وهذا التصوير يشمل في منظوره الصورة البصرية ، والإيحاء النفسي والصورة السمعية .

وإذا كان المتبادر إلى الذهن اقتران كلمة العذاب بكلمة النار وهو الأشهر ، فإن هذا يتغير في تعبير غريب كما في قوله عز وجل: ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١] وهذا ما لفت نظر سيد قطب ، مدللاً على الإيماء في ميل القرآن الكريم إلى تصوير قبح أعمال الكفار بمفردات قوائم شنائعهم ، والمقصود هنا اليهود .

يقول سيد قطب: «والنص على الحريق» هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه ، ولتجسيم مشهد العذاب؛ بهوله وتأجّجه وضِرامه ، جزاءاً على الفعلة الشنيعة قتلِ الأنبياء ، وعلى القولة الشنيعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١]»[2] .

وهو لا يذكر مثلاً مساحة دلالة «الحريق» في اللغة مقارنة بالنار ، وتحليله ليس ببعيد عما يسميه القدامى مراعاة النظير أو التصدير ، فتربط الكلمة بسياق الآية كلها ، وهذا ما نجده في كتاب درة التنزيل المنسوب

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص/ ٩٨ .
(٢) في ظلال القرآن ، مج/ ١ : ٤/ ٥٣٧ .

إلى الإسكافي وعند ابن أبي الإصبع.

وهكذا تبدو غرابة كلمة الحريق محتوية للمدلول الشنيع الغريب، إذ يُستحل القتل لعلية الناس وأشرفهم وهم الأنبياء وهم رسل رحمة، فقتلهم غريب، وكذلك التطاول على الذات الإلهية وادعاء النقص عليها، وهذا ما احتاج إلى عذاب توضع فيه البشاعة ليقترن القبيح بالمرعب، ويفعل فعلته في النفوس المخطئة المتجبرة ويكسر كبرياءها بعذاب مهين موغل بالحسية مقطّع.

ومن هذا القبيل العدول عن أنفقت إلى أهلكتُ في قوله عز وجل: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦] واللبد الكثير بعضه فوق بعض، وقد نظرت الدكتورة عائشة عبد الرحمن إلى قرائن السياق العام في الآيات لتبين البعد النفسي لدلالة فعل أهلكت.

قالت: «ولم يقل أنفقتُ مع قربها، وذلك لأن الإهلاك أولى بالغرور والطغيان، وأنسب لجو المباهاة والفخر المسيطر على المقام»[١].

وهذا المقام واضح في سورة البلد، ولا شك في وجود مفردات مختصة بدفع المال مثل: أنفق وبذل وصرف، ولكن أهلكت فعل يُعَدّ استعماله مجازياً، ففيه قيمة فنية انزياحية، وهو ليس من مرادفات أنفق كمارأت الباحثة، ففيه قدرة تشخيصية للمال، تبين استعداد هذا الكافر لقتل من عرف، فإنه ذات فوق الذوات بَلْهَ فوق الموجودات الجامدة.

وفي نهاية هذه الفقرة لابد أن نلخص منهج الدارسين الذي تكلموا على احتواء المفردة للموضوع، ما دمنا قد استعنّا بتطلعاتهم لكشف جمالية الاحتواء وتمكن المفردة من السياق وإقناعها وإثارتها النفسية والحسية معاً.

---

(١) التفسير البياني، د. عائشة عبد الرحمن: ١/ ١٨٧.

لقد استطاع الدارسون أن يربطوا وجود الكلمة بسياق الآية ، فبيّنوا حاجة المقام أو المدلول إليها ، وبينوا استحقاقها بالمكان وتفردّها به ، وقد عوّلوا على منطق اللغة العربية حيث الاستخدام السليم للدلالة ، فكان معياراً واضحاً .

وكذلك عوّلوا على التذوق الفردي ، فكان معياراً ناجحاً على الأغلب في تأملات القدامى منهم ، وذلك لأن بعض المعاصرين اعتمدوا الإسقاط النفسي الشخصي كما رأينا وهو مقبول في الأدب البشري ، وغير مستساغ في النص الديني .

وكان ثمة نظرات إجمالية عند القدامى ، لكنه إجمال لا يدل على خطل أو تعسف ، وقد دأب القدامى في الإحاطة بالأمر ، وغالباً ما استعانوا بالفروق اللغوية ، ليبيّنوا أهمية المفردة القرآنية في سياق الآية ، فكانوا موضوعيين في الوعي الجمالي .

والذي يطالع هذه الجمالية في كتب الأسلاف سيجد نفسه أمام ظاهرة التكرار التي ألمحنا إليها أحياناً من خلال الإحالات ، وهذه الظاهرة لا تدل على تحجّر ، بل تدل على إجلال اللاحق للسابق .

وقد كان هذا التكرار واضحاً في ذكر الشواهد نفسها مع نقل التعليق الفني نفسه ، فمثلاً لا يبتعد كل من النسفي صاحب تفسير «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» وأبي السعود العمادي صاحب تفسير «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» كثيراً عن تذوق سلفيهما الزمخشري ، فهما يقلدانه أحياناً بالنقل الحرفي أو بأسلوب التذوق ، كما أعاد ابن قيم الجوزية في كتابه «الفوائد» ما ورد عند سلفه الرماني ما جاء حول كلمة «ظمآن» وغيرها .

لذلك سعينا إلى الاتكاء على نماذج من الأعلام خشية الإطالة والتكرار ، خصوصاً أن كل كلمة يمكن أن تقع تحت عنوان احتواء المفردة

لموضوعها أو مناسبة المقال للمقام ، فإن الإطالة غير مجدية ، بل ساعدتنا النماذج المقبوسة على الإضافة على الشاهد ذاته وذكر شواهد أخرى وبسط معالمها الجمالية التي تؤكد ما ذهب إليه الدارس.

ويمكن أن نلتمس العذر للدارسين في التكرار بأن كثيراً من الكتب وضعت في علوم القرآن كلها أو البلاغة القرآنية بجميع وجوهها ، فلا يكون ثمة متسع للإبداع ، وربما كان بعض الباحثين غير مختصين بفنون البلاغة اختصاصاً متعمقاً كالأئمة البارعين فيها ، وهذا الأمر غير قاصر على القدامى ، بل نجده كما أسلفنا عند المعاصرين.

ونؤكد أخيراً أن هذه الفقرة ما تزال بحاجة إلى جهود وإمكانات كبيرة ورهافة حس لكشف معالم التلاحم بين اللفظ ومدلوله من خلال جوانب جمالية شتى نفسية وتصويرية ودينية وموسيقية وعقلية تتصل بالإعجاز العلمي وغير هذا من جوانب الحق والجمال.

* * *